الفصل الثاني

المدن السومرية الطلائعية:
عوامل النشأة و الخصائص

بعد جهود أربعين سنة في التنقيبات المضنية سقطت النظرية القديمة التي كانت تزعم بأن الحضارة السومرية قد كونت في بلد مجهول بعيد وأنها قد صدرت إلى العراق وهي ما تزال في عنفوانها الحضاري.
فبوسعنا الآن أن نتتبع عناصرها وإعادتها إلى عصر أو آخر عصور ما قبل التاريخ داخل العراق نفسه.

جورج رو

المقدمة

منذ أن سلط الضوء على المخلفات الأثرية التي كشف النقاب عنها قبل أكثر من قرن من الزمن في ذلك الجزء من القسم الجنوبي الذي عرف ببلاد سومر، حتى انصب سيل واسع من الاهتمام والتحري عن المعالم والجذور الحضارية للأقوام التي استوطنت فوق ركام المستقرات البشرية القروية الأولى، التي جاء وجودها في ذلك القسم استمراراً لحالة الزواج والانتشار السكاني الذي بدأ في شمال العراق واستمر جنوباً حتى وصل أرض سومر بداية الألف الخامس. وقد دفع اكتشاف ذلك الحشد الهائل من معالم التطورات الحضارية التي وجدت في الطبقات العليا من أوروك (ط 5، 4) بشكل خاص وما ناظرها من منجزات حضارية في الطبقات الموازية لها في أور وأريدو وجمدة نصر ولكش ونفر وكيش وباقي مستوطنات بلاد سومر إلى المزيد من التحري للكشف عن المظاهر الحضارية التي أدت إلى نشوء المجتمع الحضري المتزامن مع تلك المنجزات، وإلى تمكن الإنسان من تحقيقها في تلك المستقرات من أرض سومر، التي حددت فترتها ببداية الألف الثالث عندما أقام ذلك المجتمع أول حضارة مدنية عرفتها أرجاء الدنيا، التي أمدت العالم بنورها الحضاري وامتدت عناصره حتى يومنا هذا لتحمل عنوان أصالتها وديمومة عطائها.

الصبغة الحضارية وردود الفعل
التي كشفت عن السومريين

عبر ألفين وخمسمئة سنة مضت ظل العراق ينعت بصبغة الحضارة البابلية والآشورية. وقدر لهذا الموطن أن يبقى اسمه مقترناً بأسماء وحضارات تلك الأقوام الجزرية التي استوطنت أرض الرافدين، وكونت فيها أرقى وأسمى الحضارات التي عرفتها البشرية. وتعد الحضارة السومرية أول حضارة في تاريخ البشرية، ولقد كشف النقاب عنها في نهاية القرن الماضي بعد أن أصبحت وأهلها طي النسيان عندما ظهرت الدول الأكدية والبابلية والآشورية التي حملت في بطون الأسفار وكتابات المؤرخين القدماء والجدد الكثير عن ذكرها وأقوامها وما حققوه من منجزات مادية وفكرية عبر مسيرتهم الحضارية. بينما استمر التاريخ يمحو من ذاكرته كل ما هو سومري. وأصبح العراق وإلى يومنا هذا ينعت بحضارة أرض بابل أو حضارة الآشوريين. ونحن نعتز بهذا النعت لعظمة تلك الحضارات التي ضمتها أرض الرافدين، وأنتجتها الأقوام الجزرية التي يفتخر العرب بمردهم إليها. لكن من منطلق الإنصاف والأصالة يجب إسناد كثير من العناصر الحضارية إلى الأقوام التي سبقت البابليين والآشوريين، وهم السومريون الذين استطاعوا تحقيق ما امتد وجوده حتى تلك الحضارات، ووصل الشيء الكثير من تلك العناصر السومرية ضمن ما يعرف اليوم بالفكر التخطيطي المتمثل بالعناصر الوظيفية والأشكال المعمارية، حيث دأبت مدن اليوم على تضمينها مثلما أنجبها الفكر السومري في مدنه. ومن أجل إثبات تلك العناصر يجب إرجاع هذا الصنيع إلى مبتكريه، ويبقى هناك ما يبرر سبب استمرار نعت العراق القديم بحضارتي البابليين والآشوريين دون نعته ببلد الحضارة السومرية وهذه المبررات تكمن في:

1- إن الأقوام الجزرية (الأكدية والبابلية والآشورية والكلدانية) ذات الأصل السامي ممن كونوا حضارات العراق اللاحقة لحضارة السومريين عاشوا جنباً إلى جنب في الربوع الشمالية لموطن السومريين الذي عرف ببلاد سومر، وكونوا لهم مواطن عرفت بأسمائهم كبلاد أكد التي صار ملكها يلقب بملك سومر وأكد (في السومرية lugal ki-gi-ki-uri وفي اللغة الأكدية shar mat shu me)[1] (rim uakkadim) كذلك بلاد بابل التي كانت إلى الشمال من سومر، ثم بلاد أشور التي

١- موسوعة العراق في التأريخ. مصدر سابق ص 66.

حكمت جميع أراضي ما بين النهرين لتصبح حضارات تلك الأقوام وما حققته من إنجازات مادية وفكرية هي صبغة العراق إلى يومنا هذا.

2- إن الأقوام السومرية والأكدية وأقوام الحضارات البابلية والآشورية مارسوا جميعاً أعرافاً، وعادات اجتماعية، وطقوساً دينية، واتجاهات فنية، وأنظمة سياسية متشابهة نوعاً ما، وهذا ما دلت عليه المكتشفات الأثرية في المدن السومرية المختلفة، مما يدل على أنهم جميعاً كانوا جزءاً أو امتداداً لحضارة واحدة نشأت وازدهرت في القسم الجنوبي من وادي الرافدين، والتي تعرف اليوم بالحضارة السومرية.[1]

3- لم يكن هناك تمايز عرقي واضح بين الأقوام السومرية، والأقوام الجزرية التي كونت بمجموعها حضارات بلاد النهرين في وسط وجنوب العراق، على الرغم من أن علماء الانتروبولوجيا ميزوا وجود نوعين من الجماجم في المواقع السومرية أحدهما من النوع ذي الرؤوس الطويلة: (أي رؤوس جنس البحر الأبيض المتوسط) التي ينتمي إليها الساميون، كالتي وجدت في مقبرة أريدو والعبيد إلى جانب نوع آخر من الجماجم ذات الجبهات العريضة أي الطورانية التي ينتمي إليها السومريون، والتي شكلت الغالبية العظمى في بداية الأمر ثم ما لبثت أن طغت عليها جماجم الرؤوس الطويلة، ربما ذلك يثبت طغيان العنصر السامي على العنصر السومري[2].

4- نزول الكتب السماوية التي تضمنت أسماء المدن والأقوام الجزرية التي عاصرت نزولها. وقد خصت مدن العراق القديمة بالذكر في الكتب المقدسة كأور وأريدو والوركاء ونمرود ونينوى. وحيث إن جميع الحقائق عن الماضي البشري لعصور التاريخ وما قبلها وبالتحديد تاريخ الشرق الأدنى القديم صارت مستمدة من العهد القديم حتى القرن الثامن عشر الميلادي، أو من بعض الأخبار المتناثرة التي خلفتها كتب القدماء. (التي كانت في معظمها خيالية)[3] ونظراً لكون النصوص التوراتية لا يناقش أمرها، فقد استغل هذا الجانب الكثير من المؤرخين والفلاسفة المهتمين بشؤون الشرق الأدنى، وذهبوا إلى إرساء نظرية استشراقية ovrientalism vew تهدف إلى تجريد منطقتنا العربية من سبقها الحضاري الذي تميزت به عن بقية أجزاء الدنيا. فهذا رئيس الأساقفة (اوشر) يضع عام 1650م ترتيباً زمنياً يوضح

١- المصدر السابق ص 66.

٢- المصدر السابق ص 66.

٣- بوترو - جينو وآخرون "الشرق الأدنى الحضارات المبكرة" ترجمة د. عامر سليمان. جامعة الموصل. 1986 ص 21 إصدار دار النشر للطباعة والنشر.

فيه أن العالم قد نشأ نحو 4004ق.م[1] لاغياً بذلك أدوار ما قبل التاريخية للعراق القديم التي أرست معالمها جذور الحضارات العراقية القديمة. وقد استمر طبع هذا التاريخ على هامش النصوص التوراتية إلى أن بدأت الثورة الفكرية في أوروبا مطلع القرن التاسع عشر. وهذا "شلوتزر" المستشرق الألماني يستخدم عام 1781م مصطلح العاميين الذي اقتبسه من العهد القديم. سفر التكوين الإصحاح (31-21) عن أنساب سام ابن نوح الذي زعم أنه استخدمه للدلالة على الأقوام التي استقرت منذ أقدم الأزمنة في سوريا وفلسطين والعراق، ممن تكلموا لغات متشابهة تعود بأصولها إلى أصل واحد مشترك. وتلقف هذا المصطلح من مستشرقون أوربيون وكتاب عرب ليطلقوا الكثير من الدراسات على اليهود فقط[2]، حيث صار البابليون والآشوريون ضمن هذه التسمية، وربما كان ذلك مقصوداً لإضفاء الصبغة اليهودية على باقي الأنساب السامية الأمر الذي يؤكد هيمنة الفضل التوراتي على حضارات تلك الأقوام، وبالتالي كان من الأفضل إلقاء وصف الحضارات العراقية القديمة بأنها بابلية أو آشورية (أي سامية)، تلك التي حملت عنها أسفار الكتاب المقدس الشيء الكثير مما يمكن إرجاعه إلى فضل التوراة أو التأثر بها[3]. ولقد وجدت النظرية الاستشراقية في ذلك حجة تستند إليها فأخذت تبنى الكثير من الأطروحات للتشكيك في عناصر المبادئ لدى العراقيين القدماء من السومريين الذين أثرت حضارتهم على من خلفهم.

ولكن ما يهم الآن هو ما حصل بعد عام 1800م عندما بدأت الأفكار الثورية التي تدعو إلى القبول بدراسة بقايا ما في الإنسان بعيداً عن التفسير الحرفي والترتيب الزمني الوارد في العهد القديم، وعلى الرغم من أن تلك الأفكار جوبهت بمعارضة جادة ابتداءً بالأفكار التي نشرها السيد جارلس لايل في كتابه (مبادئ

١- اوتس. مصدر سابق - ص 52.

٢- ساكز. مصدر سابق. ص 34.

٣- علماً بأن أسفار الكتاب المقدس الـ 39 كتبت بحدود القرن السادس ق.م إبان السبي البابلي لليهود في الوقت الذي كانت فيه التوراة قد نزلت على موسى بحدود 1300ق.م، مما جعل كتابتها عريضة للتمييز والتعصب ضد الكثير من الأقوام السامية والكنعانية بشكل خاص الذين سبقوا غيرهم بالاستيطان في الأراضي التي اعتبرها اليهود حسب كتابهم على أنها أرض الميعاد.

الجيولوجيا) عام 1833م الذي تحدث فيه عن عوامل الترسبات الجيولوجية التي كان أخرها الطوفان التوراتي، وهو بهذا يكون قد خالف الطوفان الذي ذكره الكتاب المقدس[1]، وغيرها من الأفكار التي استمرت تطرح استناداً إلى البحث العلمي ". وإن مزيداً من الباحثين بدؤوا شيئاً فشيئاً بقبول أصالة وعظمة بقايا ماضي الإنسان ورفضوا ضمنا على الأقل التفسير الحرفي للتوراة"، حيث أدت مثل تلك الطريقة بكثير من الناس معارضين أو باحثين إلى الأخذ بالأفكار التوراتية بعد دراستها.

لذلك انصب الاهتمام العلمي في القرن الماضي على دراسة حضارات العالم القديمة، واتبع ذلك الاهتمام بحملة الأعمال التنقيبية التي بدأت في نهاية القرن الماضي ومطلع هذا القرن. ولقد حظيت حضارات الشرق الأدنى ولا سيما حضارات العراق القديمة بالاهتمام الأول، حيث بدأت فيها الدراسات والأعمال التنقيبية للأسباب التي سبق معرفتها. ففي عام 1802 كانت الخطوة الحاسمة باتجاه قراءة ما أراد سكان الشرق الأدنى القديم أنفسهم قوله عن هذا الموضوع" عندما نجح بروتفند G.F.grotfend جزئياً في حل نصوص فارسية قديمة دونت بالخط المسماري، وهي النصوص نفسها التي كان نيبور G.niebuhr قد استنسخها عام 1765م من قصر ملوك الفرس في برسيبولس، والتي تعود إلى عهد دارا واحتوبرش غزاه اليونان الفاشلين[2]. وقد نقشت تلك النصوص على الحجر بثلاث كتابات (أي ثلاث لغات) كانت الكتابة الأولى تمثل النص الفارسي القديم، بينما كشف العلماء الأوربيون النقاب عن أحد النصين الباقيين، حيث كان الأول مدوناً بالعيلامية لغة جنوب غربي إيران، أما الآخر فقد دون بلغة البابليين والآشوريين، وهي لغة الأقوام الجزرية التي كانت في غاية التعقيد ولم تحل كلياً إلا في عام 1857م وكان لحل هذه الرموز نتائج كثيرة أفادت في فهم الماضي القديم لمعظم أقطار غرب آسيا، ومنها العراق التي كانت تدون بهذه اللغة التي شاع تسميتها في بادئ الأمر باللغة الأكدية[3]. واندفع الأوربيون للتنقيب وعلى نطاق واسع في عواصم الإمبراطورية الآشورية التي كانت مواقعها معروفة لديهم عن طريق الإشارات التوراتية والكلاسيكية مثل نينوى وخرسياد ونمرود للأسباب التي عرفناها. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر عاد المنقبون الفرنسيون والإنكليز أمثال بوتا bottu وفلاندن. Flandin flan din وليرد Layard (وهم رواد

١- أوتس. مصدر سابق. ص 53.
٢- المصدر السابق ص 22.
٣- جين بوتراو وآخرون. مصدر سابق ص 22.

علم الآثار) بالتقارير الأولى عن القصور والمعابد الرائعة، وكذلك المنحوتات والتماثيل الضخمة التي أودعوها في متحف اللوفر والمتحف البريطاني.

وإنَّ أبرز تلك المكتشفات هو المكتبة الرسمية لأشور بانيبال (669-627ق.م) آخر ملوك الدولة الآشورية الذي استطاع أن يجمع كل النصوص الدينية والأدبية التي تمكن مبعوثوه من وضع أيديهم عليها بما في ذلك النصوص التي عرفت فيما بعد أنها سومرية[1]. وكان ذلك ليس ببعيد عن عام 1869 عندما قادت عملية قراءة النصوص المسمارية المكتوبة باللغة الآشورية التي ضمتها المكتبة إلى ميلاد عام جديد أقرته المحافل العلمية عرف (بعلم الآشوريات assyriology). سوى أن هناك مجاميع من الرقم الطينية المكتوبة بالخط المسماري مدونة بلغة تختلف تماماً عن اللغة الآشورية التي كان العلماء قد توصلوا إلى حلها[2]. وهنا برزت الفرضية التي تنص على أن أقواماً أخرى كانت قد سكنت بلاد وادي الرافدين قبل الآشوريين، وإن هذه اللغة المجهولة تعود إلى أحد هذه الأقوام فاعتقد في بادئ الأمر أنها لغة السيئين تلك الأقوام التي كانت تسكن المناطق الشمالية من البحر الأسود، وقد أطلقوا عليها اسم اللغة "الاشكوازية" التي اقتصر استخدامها على طبقة الكهنة أثناء طقوسهم الدينية. فيما ظن بعض الباحثين بأنها تعود إلى الأكديين، وهم أحد الأقوام الجزرية التي حكمت بلاد الرافدين قبل البابليين والآشوريين، واستمرت مثل تلك الفرضيات حتى عام 1869م عندما استطاع أحد العلماء المعنيين بالكتابات السومرية المسمارية واسمه اوبيرت oppert أن يكتشف أن تلك اللغة تعود إلى أقوام يعرفون بالسومريين عن طريق اللقب الذي كان يستخدمه ملوك وادي الرافدين، وهو (ملك سومر وأكد) الذي يكتب بالسومرية (lugal-ki-en) بينما يقابله في الأكدية (shar-mat shumerim-u. akadiumdk)، وفي كلتا الحالتين فإن اللقب يدل على وجود أقوام أكدية (تتكلم لغة جزرية) وأخرى غير جزرية لا تتكلم اللغة السامية هم السومريون[3].

وهكذا بات السومريون حقيقة لا مفر منها، مما دفع الباحثين والمنقبين هذه المرة للتوجه في تنقيبهم إلى الجزء الجنوبي من العراق. (وكانت تسمى بأرض بابل) وقاد الحملة لأول مرة عام 1887م دي سارزاك de-sarzek في تلو (جرسو) girsu حيث عثر على بقايا الحضارة السومرية الأولى، وكان من بينها تماثيل عليها كتابات لحاكم المدينة جوديا، ولوحتان أسطوانيتان من الطين عليهما كتابة تمثل أقدم نصوص أدبية طويلة. وفي عام 1889م عثر المنقبون الأمريكان في مدينة نفر (تيبور) عند مسكن خاص يعود إلى 1800ق.م على أكبر مجموعة من النصوص الأدبية السومرية زاد عددها عن 30 ألف رقم طيني). ثم تلت ذلك أضخم أعمال تنقيبية قادها الألمان منذ عام 1903م في أهم المواقع السومرية تلك

١- بوترو وآخرون - مصدر سابق ص 21.
٢- موسوعة العراق في التاريخ - مصدر سابق ص 66.
٣- بوتر وآخرون - مصدر سابق - ص 23.

هي تنقيبات الوركاء (أريج التوراتية) التي أوضحت عام 1953م كل شيء عن الحضارة السومرية، والحياة المدنية التي كانت قد بدأت في طبقة (4، 5) من الوركاء، وما يناظرها في مدن أخرى كأور وأريدو وكبش والعقير ونفر وغيرها من المدن السومرية القديمة التي كانت ينبوع العطاء الحضاري الأول في العالم. وهكذا وبعد التعرف على الأقوام السومرية كحقيقة موجودة، وبعد سلسلة كبيرة من الدراسات العلمية الانثربولوجية واللغوية والآثارية وردود الفعل حولها تأكدت أصالة عراقية السومريين ولم يظهر للآن ما ينفي ذلك. وخلاصتنا لتلك الآراء بقول الأستاذ طه باقر «بأن السومريون هم إحدى الجماعات المنحدرة من بعض الأقوام المحلية في وادي الرافدين في عصر ما قبل التاريخ البعيد، وإنهم عرفوا باسمهم الخاص السومريون نسبة إلى اسم الإقليم الذي استوطنوا فيه أخيراً في القسم الجنوبي من العراق، كما أن كثيراً من الأقوام التاريخية التي اشتهرت في وادي الرافدين، وأسهمت في تكوين حضارته وأحداثه التاريخية سميت باسم المواضع التي حلت فيها مثل الأكديين نسبة إلى مدينة (أكد أو آكاده) العاصمة التي أسسها سرجون الأكدي. والبابليين نسبة إلى مدينة بابل. والآشوريين نسبة إلى مدنية أشور. وهكذا يمكن تتبع أصول الحضارة السومرية إلى جذورها الأولى في عصر ما قبل التاريخ... » وإن السومريين لم يكونوا أقدم المستوطنين في السهل الرسوبي من الجنوب العراقي"[1].

١- باقر، طه «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة» مصدر سابق ص 64.

نشأة المدن

بموجب المفاهيم الأساسية لعلم التخطيط الحضري والإقليمي المعاصر أصبح واضحاً أن المدن في نشأتها وخصائصها وسماتها تتأثر بأحوال الجغرافية للرقعة التي نقوم عليها، ومستوى علاقتها بظهيرها المحيط بها (خصائص الموقع والموضع) إلا أن هناك عناصر فعالة تبقى هي المقررة لتتابع النمو والازدهار في ظل هذه المدن حتى تصبح مركزاً حضرياً كبيراً. والعكس صحيح حيث يصيبها الجمود والانحطاط والتدهور في غياب تلك العوامل، وربما تضمر وتتحول إلى ما يشبه القرية شكلاً أو ربما تزول عن الوجود. وهذه العوامل هي:

أولاً: السكان والتركيب الاجتماعي الذي يشكل العنصر الأساسي في تطور أيّ مدينة، وعليه يتوقف حجم المدينة واتساع رقعتها، وبالتالي حجم الرقعة التي تشغلها مساكنهم.

ثانياً: النشاط الاقتصادي الذي عليه يتوقف ازدهار المدينة وانحطاطها. بل أن مكانة المدينة تقررها الوظائف والأعمال التي يقوم بها السكان. حتى إذا ما تخصص عدد كبير من السكان الذين يعملون في مجال أو نشاط معين صارت تلك المدينة تجارية أو دينية أو إدارية، رغم عدم وضع مقاييس تحدد عدد العاملين في هذا المجال أو ذاك بما تميزت به كل مدينة متخصصة.

ثالثاً: القيم الروحية والذوقية والسلوكية التي تقرر مثل المدينة وسمتها الحضارية المادية، وأسس تقرير هوية المدينة وتميزها عن التجمعات البشرية الأخرى (كالبلدة والقرية)، وإنَّ تميزها عن المدن الأخرى خاضع إلى جملة من المعايير: منها المعايير الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والتشريعية.

ولذا سيتم دراسة المدن السومرية الأولى (الطلائع) عبر العوامل التي أثرت في نشأتها، والخصائص التي تميزت بها، والتركيب الداخلي لها بغية التوصل في الفصل اللاحق إلى أهم العناصر التخطيطية فيها والتي شكلت الفكر التخطيطي لها.

عوامل نشأة المدن السومرية الأولى (الطلائعية)

إن الكلام عن نشأة المدن السومرية الأولى يعني بالضرورة أن ندرس كيفية تحول القرى الزراعية في القسم الجنوبي من العراق الذي عرف بأرض سومر إلى مدن، ونعني بذلك مدن الوركاء وأور وأريدو ولكش والعقير وغيرها من المدن التي كشفت التنقيبات الأثرية عن معالمها الحضرية، وأظهرت أن المدينة وحياتها المدنية كانت مظهراً أصيلاً من مظاهر الحضارة العراقية القديمة في القسم الجنوبي من العراق. وقد ثبت عبر مجموعة من العوامل أن نشأة تلك المدن هي نتيجة حتمية فرضتها التطورات الدينية، والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والسياسية التي شهدها المجتمع العراقي القديم، والذي تمتد جذوره إلى آلاف السنين ابتداءً من عصور ما قبل التاريخ وإلى العصر الشبيه بالكتابي. حيث حلت المدينة وحياتها المدينة بدلاً من القرية وحياتها الريفية، وصارت المدينة كما تعرف الآن أنها: رقعة واسعة نسبياً تؤدي عدداً كبيراً من السكان غير المزارعين الذين يعيشون على مبادلة المنتوجات والخدمات الضرورية[1].

لذلك أمكن تحديد العوامل التي تقف وراء نشأة المدن السومرية الطلائعية بما يأتي:

أولاً: اختيار مواقع ومواضع المستوطنات السومرية (العامل الطبيعي):

إن توضيح دور العامل الطبيعي لنشوء المدن السومرية الأولى يعني بالضرورة الكشف عن الخصائص الموقعية والموضعية التي امتازت بها قرى بلاد سومر أولاً، وإنّ تتبع العوامل المؤثرة في اختيار تلك المواقع نفسها تعكس الفكر التخطيطي لدى السومريين الذي صارت عناصره سبباً في تحول تلك القرى إلى مدن من مراحل:

1- وقوع غالبية مستوطنات بلاد سومر على ضفاف الأنهار أو على ضفاف جداول ومجاري المياه. ولقد كانت صفة وقوع المستوطنات الجنوبية على النهر أو على مجرى مائي منذ عصر العبيد وحتى ما بعد السومريين هي الصفة الأساسية لمواقع قرى ومدن العراق القديم في ذلك القسم[2]. فهذه أريدو كما قد مر سالفاً تقع على البحر مباشرة إضافة إلى اختراق نهر الفرات أو أحد فروعه المدينة قبل أن يصبَّ في الخليج وكانت أور تقع على الخليج مباشرة، واشتق اسمها من هذا الموقع. وكانت الوركاء تقع على نهر الفرات، ويفصلها عن البحر

١- الموسوي. مصطفى عباس(العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية) منشورات دار الرشيد للنشر (س 295) وزارة الثقافة والإعلام بغداد 1982 ص 16.

٢- باقر، طه - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. مصدر سابق ص 328.

(الخليج) بطائح مائية على شكل أهوار كبيرة. ومثل ذلك معظم القرى السومرية التي تحولت إلى مدن لاحقاً. إذ لعب وقوع تلك القرى على ضفاف البحار والأنهار دوراً كبيراً في تحولها إلى مدن نتيجة:

أ- ابتكار وسائل النقل المائي التي صارت تجوب مياه نهر الفرات، حيث تقع عليه معظم المستوطنات السومرية أو على الجداول المتفرعة منه بشكل أدام الاتصال بين المستقرات الواقعة على ضفافها وبين العالم الخارجي لا سيما بعد اختراع السفينة الشراعية كإحدى وسائط النقل المائي ذات القدرة العالية على نقل كميات كبيرة من المواد المتاجر بها، والتي تغطي نفقات الرحلة أولاً، وتحقق الفائدة المرجوة من المتاجرة بعد أن كانت الحيوانات ذوات الأحمال البسيطة والمسافات المحدودة هي الوساطة لذلك.

أدت طبيعة العراق السهلية المنبسطة والمنحدرة من الشمال إلى الجنوب، وانتشار شبكة الري في الأراضي الزراعية الواسعة إلى الاعتماد على وسائل النقل المائي سواء أكان الزورق أم القوارب الشراعية وصولاً إلى السفينة الشراعية، وقد كان القسم الجنوبي من العراق وقسماً كبيراً من الأراضي الزراعية يتعرض للغرق في موسم الفيضانات، وذلك يجعل الطرق البرية فيها مخربة وصيانتها أمراً صعباً للغاية وربما مستحيلاً، لذلك فضل رجل القسم الجنوبي اللجوء إلى وسائل النقل المائي ليديم الاتصالات بين مستوطناته وبين العالم الخارجي.

كذلك تستطيع أبسط وسائل النقل المائي سواء الزوارق أو السفن الشراعية السير في مياه دجلة والفرات بيسر وسهولة دون أيّ خطورة إلى مصب النهرين عند الخليج ومن هناك إلى باقي المراكز والأطراف التجارية.

وهكذا فقد هيأت العوامل الطبيعية طرقاً جيدة دون الحاجة إلى إنفاق المال في إنشائها وصيانتها كما هو حال الطرق البرية، فكانت عاملاً مشجعاً على ازدهار التجارة وتطورها في العراق القديم انعكس على تحول معظم قرى الجنوب إلى مدن بعد أن تحول معظم نشاطها إلى التجارة بدل الزراعة يفضل خاصية مواقعها المطلة على ضفاف البحر والأنهار.

ب- لقد اختار إنسان القسم الجنوبي مواقع المستوطنات عند ضفاف الأنهار أو بين مجاري الأنهار الكبيرة أو القنوات الطبيعية أو الاصطناعية المتفرعة منها لتكون مصدات أو خنادق منيعة تقف بوجه الأقوام الطامعة.

واستعملت الجزر التي تتوسط الأنهار لتكون مواقع أمنة ومحصنة بشكل طبيعي، مما جعل معظم تلك المستوطنات في مأمن. ولقد أثر موقعها في تنشيط اقتصادها وزيادة إنتاجها إلى دور الفيض، مما دفعهم إلى المتاجرة به وتحويل تلك المستوطنات إلى مدن.

ج- إن اختيار مواقع المستوطنات السومرية على ضفاف الأنهار يعد بحد ذاته مصدراً لإدامة الحياة فيها ولأهمية المياه لحياة المقيمين وزراعتهم المعتمدة في معظم الأحيان على مياه السقي.

2- أما الخصائص الموضعية التي تمت مراعاتها في اختيار مواقع المستوطنات السومرية فيمكن إدراك تأثيراتها في تحويل تلك المستوطنات إلى مدن عبر الأهمية الطوبوغرافية لتلك المواقع التي تمثلت في:

أ- تتميز تلك المستوطنات بالسعة النسبية، والارتفاع عما يجاورها بشكل سمح بضم جميع استعمالات الأرض التي تديم الحياة اليومية. وإنَّ ارتفاع تلك المواقع يشكل عامل أمان لتلك المستوطنات من أخطار فيضانات الأنهار، والجداول كما يحميها عند انكسار قنوات الري، حيث كانت إحدى المشاكل الكبرى التي تواجه معظم مستوطنات بلاد سومر. ولذا نجحت مستوطنة الوركاء وأور وأريدو في اتخاذ مواقعها المرتفعة والواسعة، مما أتاح لها أن تبقى في مأمن، وأن تتوسع تبعاً لحاجتها التي كانت تتزايد مع توسع أنشطتها الاقتصادية التي حولتها إلى مدن كبيرة، حيث صارت مركزاً تجارياً مثل أور وسياسياً كالوركاء ودينياً كأريدو.

ب- لقد اختيرت معظم المواقع السومرية وسط ظهير محاط بعدد كبير من القرى الزراعية التي صارت ترتبط فيما بينها بشبكة من الطرق والمواصلات، مما جعلها خير رافد لتلك المستوطنات. حيث كانت هذه القرى تؤمن للمستوطنات ما تحتاجه من مؤن، وأيد عاملة، ومستوطنين جدد عندما تستدعيهم الحاجة وهذا ما سهل تحول تلك المستوطنات إلى مدن، حيث أصبحت تعتمد على ظهيرها الزراعي مقابل نشاطها الخدمي. وبذلك تضافرت عدة عوامل لجعلها مراكز حضرية.

ج- لقد أدت مواقع ومواضع المستوطنات السومرية المطلة على الأنهار إلى ربطها بشبكة واسعة من طرق المواصلات البرية والنهرية، مما سهل ارتباطها مع بعضها البعض ومع ظهيرها الواسع، وأصبحت مراكزها تقدم الخدمات للقرى المحيطة والعالم الخارجي. ولهذا نجد أن بعض المدن قد ضعف إنتاجها أو انقطع كلياً أو إندرس وجودها بعد أن غير نهر الفرات مجراه، وغادر التقرب منها كأور والوركاء. والعكس صحيح إذ نجد بروز مدن جديدة لم تكن معروفة سابقاً كما حصل لبابل على الرغم من وجود عوامل أخرى ساهمت في هذا التحول مثل الملوحة أو تعرق التربة في مقدمتها، مما جعل مدن العراق لاحقاً تتجه إلى الشمال من بلاد سومر وصولاً إلى أعالي بلاد الرافدين.

3- لقد أثر الموقع المرتفع للمستقرات البشرية عند ضفاف الأنهار في إظهار الشكل الخارجي لتلك المستوطنات والذي كان في معظم الأحيان يأخذ الشكل البيضوي أو شبه الدائري، مما ساهم في إقامة الأسوار والخنادق الدفاعية حول تلك المستوطنات. لأن الشكل الدائري هو أبسط الأشكال وأكثرها سيطرة على الأجزاء. وقد اعتبر كثير من مخططي المدن والمؤرخين وعلماء الآثار هذه الميزة هي من أبرز الحدود الفاصلة بين القرى وتحولها إلى مدن، لأن السور صار يعزل تلك المدن عن ظهيرها الزراعي، ويؤمن لمواقعها الحماية الكافية وظيفياً وشكلاً، إضافة إلى الحماية الطبيعية التي أمنتها الأنهار.

إن وقوع الوركاء وتوضعها على نهر الفرات الذي جعلها أقرب إلى الشكل الدائري. الأمر الذي مكن ملكها الخامس جلجامش من بناء سور لها. كذلك أحيطت مدينة أور بسور أظهر شكلها البيضوي فتمتعت بإطلالتين على البحر استغلتا لإقامة الميناء الشمالي والغربي لها.

فصارت ميناء تجاري حافظ على بقاء تلك المدنية التجارية عبر جميع المراحل التي لازمت فيها موضعها المطل على البحر.

كذلك أحيطت المنطقة المقدسة من أريدو بسور جعلها تستمر في أدائها لواجباتها الدينية إلى عهود متأخرة وكمدينة مقدسة فيها إله الحكمة (انكي) الذي دأب الملوك والحكماء إلى التقرب منه وإرضائه جيلاً بعد جيل وقد أدت إقامة الأسوار حول تلك المستوطنات إلى تأمين الحماية الكاملة لتلك المستوطنات من الأخطار البشرية، والطبيعية، وتعزيز مكانتها السياسية المستقلة لتكون دولة مدنية.

ثانياً: تطور المعتقدات الدينية وظهور سلطة المعابد (العامل الديني):

اتضح لنا أن الحضارة العراقية كان لها وجود في الأقسام الشمالية، والشمالية الشرقية من العراق منذ الألف السابع ق.م. نظراً للظروف الطبيعية التي هيأت العوامل الملائمة لإقامة المستوطنات البشرية التي انتشر وجودها في تلك المنطقة، وصار اقتصادها مرتبطاً بالزراعة المطرية. وتأكد لنا أن المرأة كانت زعيمة المجتمع، وبيدها الشؤون الدينية والزراعية، فأصبحت الإله الأم.

ولما نفذت خصوبة التربة في أراضي تلك المستوطنات نتيجة زراعتها لفترات متتالية وشحت الأمطار نسبياً نزح العدد الفائض من سكان تلك المستقرات واتخذ مواضعاً لمستقراته في منطقة الجزيرة قريبة من مصب نهر دجلة للاستفادة منه في السقي والزراعة، ولأن تلك المنطقة كانت شحيحة الأمطار أصلاً. وأضيف إلى واجبات المرأة واجباً جديداً ألا وهو استنزال المطر عبر طقوس الاستسقاء التي كانت تمارس من قبل النساء ذوات الشعور الطويلة. وكان الرجل رغم ممارسته للزراعة

المعتمدة على الري يشارك المرأة في أداء بعض الطقوس الدينية التي دلت الآثار المادية في تل الصوان عليها[1].

إن هذه المميزات الاعتقادية التي برزت في الأقسام الشمالية سواء ذات الأمطار الكافية أو ذات الأمطار الشحيحة جعلت المرأة تخص بالقدسية لذلك صنعت التماثيل والدمى لعبادتها. ولكن عندما انتقلت مواقع المعتقدات البشرية إلى القسم الجنوبي من العراق تغيرت مثل هذه المعتقدات والممارسات استناداً إلى حقيقتين صارتا تؤكدان الرابطة القومية بين سكان الجنوب وعادات المناطق الشمالية، مما يثبت انحدار الأقوام الجنوبية (السومريون) عن سكان المناطق الشمالية هاتان الحقيقتان هما:

1- إن البيئة الجديدة سمحت لتزعم الرجل للطقوس الدينية لسببين:

أ- خصوبة الأرض في الجنوب ووفرة المياه فيها مما ساعد على الزراعة والانتفاع بها دون الحاجة إلى ما يزيد خصوبتها من طقوس وعبادات.

ب- إن الزراعة في الجنوب لم تعد تعتمد على الأمطار بل على الري الذي يحتاج إلى جهود الرجل أكثر من طقوس النساء.

لذلك عندما آلت الزعامة إلى الرجل أراد أن يمنحها شيئاً من القدسية التي كانت عند المرأة، والتي تكمن في الدم والشعر الطويل، فعمد إلى إطالة شعر لحيته[2] بدلاً من شعر رأسه، فوضع عليه الغطاء (العمامة)، والتي لا تزال تلازم رجال الدين في الكنيسة، والتي أكدتها معتقدات الكتب السماوية كافة مما يدل على

شكل 30: كاهن من الوركاء بالعمامة واللحية الطويلة نحو 3500 ق. م (فوزي رشيد، الاستشراق 1995)

١- رشيد، د. فوزي - مصدر سابق. ص 26.
٢- رشيد. فوزي. مصدر سابق ص 28.

السبق السومري أو أسلافهم في ممارسة هذا المعتقد من جهة، وكيف أن الأديان السماوية كانت تحاكي عقول البشر عند نزولها، وتكون أقرب إلى لغتهم الفكرية. وقد عثر على تماثيل في طبقات الوركاء تؤكد هذه المعتقدات شكل رقم (30) مما يدل على تطور متصل (ولو بردود فعل متعاكسة) بين عراقي الشمال ومن انحدر منهم جنوباً، وأنّ الشعب السومري أو أسلافهم الذين سبقوهم كانوا من سكان عصر العبيد.

2- إن انحدار سكان المستقرات البشرية الشمالية إلى منطقة الجزيرة:

في بداية الألف السادس ق.م كانت الأمطار المتذبذبة غير كافية لنمو الزراعة، مما أدى إلى زعزعة أركان العبادات الأولية المتمثلة بعبادة الآلهة الأم، إذ صار الإنسان يتجه بأفكاره إلى العوامل الجوية المؤثرة في المطر والزرع والحصاد أكثر من اهتمامه بالخصوبة، وكل ما يولد وفرة الإنتاج. لأن الخصوبة تصبح بلا قيمة إذا لم تهطل الأمطار بكمية كافية لنمو الزرع اللازم لغذاء الإنسان والحيوان[1] فدفعت هذه الحقيقة بالإنسان إلى اعتقاد فكرة دينية جديدة تعتمد طقوسها على تقديس العوامل الطبيعية والنظر إلى الماء على أنه أساس الحياة[2].

ومما لاشك فيه أن المناطق ذات الأمطار المتذبذبة (المجاورة لسامراء وتل الصوان) لا يمكنها أن تستوعب كثافة سكانية عالية نظراً لقلة مردودات العائد الزراعي وعدم كفايته. لذلك صار لزاماً مرة أخرى على أيّ زيادة سكانية أن تهجر مثل تلك المناطق حفاظاً على التوازن البيئي، والأمن الغذائي لمجتمعات تلك الأقوام المنحدرة من الأصل الشمالي. ولم يكن أمامهم سوى الطريق المؤدي إلى القسم الجنوبي من العراق كونه حديث التكوين وخال نسبياً من السكان، وفيه من المقومات الاقتصادية ما يكفي لإعالتهم، فقد نزلوا فعلاً إلى تلك المناطق مما يثبت فعلاً أصالة انحدار السومريين وأسلافهم من قبل عن عراقي الشمال.

وكان هذا النزول تدريجياً حيث بدأ قريباً من بغداد وجنوب نهر ديالى ليستمر جنوباً حتى بلاد سومر. ومن المؤكد أن تلك الجماعات المهاجرة نقلت معها فكرة عبادة القوى الطبيعية المؤثرة في المطر والزرع والحصاد ونشرتها هناك، فكان من بينها طقس الاستسقاء الذي حولوه إلى عيد يحتفلون به ولا سيما

١- رشيد، فوزي. مصدر سابق ص 27.
٢- رشيد، د. فوزي موسوعة حضارة العراق - مصدر سابق ج 1 ص 146.

في وقت الاعتدال الخريفي. وهو بمثابة دعوة لسقوط المطر وكان يلفظ بالسومرية akiti واستمر عند الأكديين وكان اسمه "اكيتو"[١]. وعمد سكان القسم الجنوبي من العراق إلى تقديس العوامل الجوية التي جعلوها (بشكل آلهة) تمثل العناصر الجوية المؤثرة في الزرع والحصاد، وما يتبعهما فكان إله السماء "آنو" وإله الهواء (انليل) وإله الأرض والحكمة (اتكي) وإله الشمس (أوتو) وغيرها من الآلهة التي ذكرتها معظم الملاحم والأساطير السومرية، والبابلية[٢]. ثم أن هذه الآلهة صارت توضع في الأماكن المناسبة لتقديسها، وتقديم النذور والقرابين لها، وممارسة الطقوس الدينية والصلوات الكهنوتية عنده، وثبتوا لها مواقع خاصة شكلت المعابد التي احتلت المنطقة المركزية من القرى شكلاً وتركيباً.

ونجد أن المستوطنات السومرية قد اختصت كل منها بإله وصارت تعرف عن طريقه. فهذه أريدو قد حوت معابدها على الإله انكي، وصارت أقدم مركز لعبادة الآلهة.

فيما ضمت مستوطنة الوركاء معابد إله السماء (آنو) ومعبد (أي انا) إله السماء وحوى مستوطن نفر على معبد إله الهواء (اتليل) وفي سبار كان معبد إله الشمس، إضافة إلى ما حوته تلك المستوطنات وغيرها مثل أور ولكش وكيش من معابد أخرى أصبحت رمزاً لهذه العوامل كما أصبحت رمزاً لعوامل السلطة السياسية فيما بعد.

والجدير بالذكر وكما بينت الملاحم الأسطورية أن سكان القسم الجنوبي ومن أتى بعدهم من سكان بلاد الرافدين لم يتساءلوا على الإطلاق عن نوعية القوة التي قامت بخلق الآلهة الرئيسة، بل اعتبروا وجودها من الأمور الأزلية التي لا تحتاج إلى نقاش، وإن هذه الآلهة هي التي قامت بخلق الكون والإنسان والسبب في إيمانهم هذا هو التماسهم تأثير هذه العوامل على حياتهم الزراعية، مع عدم معرفتهم لتكونها الأصلي فحولوها إلى آلهة واعتبروها أزلية أيضاً[٣].

أي إنهم عبروا عن الظواهر الطبيعية بهيئة إله يمثل معتقداتهم، وهي كائنات بيدها تقرير مصير الكون وتنظيم شؤون الحياة. وإن وجود عدد من الآلهة في المستوطنة الواحدة لم يكن يلغي الإطار العام للديانة التي ترتكز إلى الجانب الروحي ونظرة التقديس لتلك الآلهة. وهذا هو مبدأ الشرك الذي تحدثت عنه الكتب السماوية إبان تلك الفترة[٤] التي تؤكد على ضرورة تكريس جهود الإنسان، وعمله لخدمة الآلهة وتكريمها، وأداء الشعائر الخاصة بعبادتها، والتي كانت تقوم في

١- رشيد، د. فوزي مصدر سابق ص 30 (1995).
٢- رشيد، د. فوزي موسوعة حضارة العراق - مصدر سابق ج 1 ص 146.
٣- رشيد، د. فوزي - موسوعة حضارة العراق ج 1- مصدر سابق ص 149.
٤- فترة نبي الله نوح (ع) ومن بعده النبي إبراهيم (ع)

بيوت تلك الآلهة التي عرفت بالمعابد، حيث يتخذها ممثلوا الآلهة من الكهنة، ومعاونيهم مقراً لهم لممارسة مهماتهم الدينية والدنيوية، وفي توجيه نشاطات المجتمع التي بلغت دورتها في مرحلة سيادة المعبد. إذ لم يكتف المعبد وسلطته الدينية بالشعائر والطقوس الروحية، والكهنوتية فحسب، بل صار يتولى السلطة الدنيوية إلى جانب ممارساته الدينية.

لذلك ظهرت ألقاب شتى لطائفة الكهنة العاملين في المعبد بدءاً بالكاهن الأعظم en الذي كان يتولى زمام السلطتين الدينية والدنيوية، وغالباً ما كان يظهر بشكل ملك أو حاكم له زيه الخاص[1]. لذلك صورتهم الأساطير والنصوص الأدبية على أنهم أنصاف آلهة، وتكلمت عن بطولاتهم وقدرتهم في إدارة شؤون مستوطناتهم (في عصر السلالات الأولى قبل دويلات المدن)، ويساعد الكاهن الأعظم طائفة من الكهنة ممن حملوا ألقاباً تشير إلى ممارستهم للشؤون الدنيوية إلى جانب سلطتهم الدينية فكان sangu وهو لقب لكاهن يمثل الرئيس الإداري للمعبد dub- sar وهو من العاملين في مؤسسة المعبد وsukkal الوزير أو الرسول، وكذلك lugal وألقاباً أخرى تمثل دور كل منهم في سلطة المعبد[2]. التي تعدت جوانبها الروحية، وصار المعبد يقوم أيضاً بالتشريع، وإصدار اللوائح والتشريعات التي تنظم الملكيات، والشيوع وسلوك الناس، وتجري فيه بعض المحاكمات التي يتولى الكهنة فيها دور القضاة. وكان المعبد يقوم بدور المركز الثقافي والكهنوتي، حيث يتدرب ويتعلم فيه الكهنة والكتبة وطلبة العلم، وتحفظ فيه مختلف النصوص الأدبية والدينية.

وقد أتت مكانة المعبد كمؤسسة منظمة للمجتمع السومري ليس من ممارسته وظيفته الدينية فحسب، بل في مساهمته في التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي صار ينتاب حياة المستوطنات السومرية في الفترة التالية لدور سيادة العبيد حتى عصر فجر السلالات. والتي تمخضت عن ظهور مدن الطلائع في نحو 3000ق.م (قبل أن تتحول إلى دولة المدينة أثر انفصال السلطة الدنيوية عن المعبد نحو

١- صورة الأختام الأسطوانية والصلات و المنحوتات بشكل رجل ملتحي وعلى رأسه قبعة تمثل نصف جسمه العلوي ويمثل النصف الأسفل بقايا تنورة تشبه لباس الأمراء.

٢- مهدي علي محمد "دور المعبد في المجتمع العراقي من دور العبيد حتى نهاية عصر الوركاء" أطروحة ماجستير غير منشورة مقدمة لمجلس كلية الآداب - جامعة بغداد - 1975 ص 128.

2800ق.م وما تلاها) والتي كان للمعبد دوراً كبيراً في نشوئها عن طريق النشاطات الاقتصادية والاجتماعية التي مارسها المعبد في تلك المرحلة في ظل سيادة سلطته الدينية والدنيوية.

فعلى صعيد الجانب الاقتصادي: يمكن توضيح أبرز مساهمات المعبد في تحرك اقتصاد المستوطنات نحو اقتصاديات المراكز الحضرية بالآتي:

1- تملك المعبد لجميع الأراضي الزراعية على اعتبار أن ملكية المعبد تعني ملكية الآلهة التي ينوب عنها الكهنة، وبالتالي فهي ملك لعامة الشعب وهذا يعني غياب الملكية الخاصة.

وقد ساهمت مثل تلك الظاهرة في القضاء على التمايز الطبقي الذي كان من المحتمل أن توجده مراكز القوى والنفوذ، والتي من شأنها الاستئثار بجهود المجتمع[1].

2- قيام المعبد بتطوير إمكانيات وقابليات المستوطنات وحضها على الإنتاج الزراعي الواسع عن طريق تنظيم الجهد الاجتماعي المشترك، والتعاون لإصلاح الأراضي، وتنظيمها وإقامة مشاريع الري الكبرى المتمثلة بمد القنوات والجداول لإيصال الماء إلى أبعد نقطة يمكن أن تتوفر فيها أرض ملائمة للزراعة. لذلك امتدت سلطة المعبد إلى القرى الزراعية الصغيرة المحيطة بالمستوطنات الكبيرة كما حصل في أور التي صار مركزها يسيطر على مناطق واسعة تحيط بالمستوطنة الرئيسة وصارت تلك السمة واضحة في المستوطنات الشمالية لبلاد سومر كالوركاء وأوما ونفر. لذلك يوضح روبرت آدمز في دراسته لمنطقة الوركاء أن أكثر من مئة مستوطنة صغيرة صارت تقع ضمن سيادة معبد الوركاء[2]. وفي مثل تلك الحالات صار المعبد يمارس الإشراف على تلك الأراضي، ويعمل على تنمية إنتاجها وتطويره، إضافة إلى دوره في تطوير مشاريع الري الواصلة إليها، وإصدار التعليمات اللازمة للحفاظ على تلك الأراضي ووسائل الإنتاج.

3- قيام المعبد بفض النزاعات التي تحصل عند استغلال وسائل الإنتاج، والأراضي الزراعية، ووسائل إروائها بعد أن صارت الأجهزة القديمة التي كانت

١- مهدي، علي محمد - مصدر سابق ص 117.

٢- مهدي، المصدر السابق نفسه ص 123 عن:

adams. R. mce "the study of" ancient Mesopotamian settrns pattns and profiem of urban origins" summer 25 1969 p 115.

تتولى تنظيم العلاقات على أسس الروابط العشائرية[1] غير قادرة على تحقيق المهمات الكبيرة في ظل توسع المجتمع والأراضي المخصصة لنشاطاته.

4- قيام المعبد بتأجير الأراضي الزراعية مقابل نسبة معينة من عائدها، وكذلك تقديم العروض لمستغلي الأراضي مقابل فوائد محدودة، وقبول الإيداعات والرهائن التي تقوم بها المصارف اليوم لغرض الاستفادة منها في تطوير الاقتصاد الذي كان في معظمه اقتصاداً زراعياً[2].

5- قيام المعبد ببناء معامل وورش مخصصة للصاغة والنحاتين والنجارين والخياطين ومخازن ومعامل يعمل فيها الصناع من رجال مقابل أجور معينة، وكان في كل معمل مشرف[3].

6- قيام المعبد باستغلال عوائد فائض الإنتاج الزراعي لتنفيذ المشاريع الكبرى تحت إشرافه[4]. ومنها قنوات الري وصناعة السفن، إضافة إلى الاهتمام ببناء، وتضخيم المعابد نفسها، وباقي المرافق المعمارية، مما أسهم في زيادة التخصص الحرفي وزيادة عدد العاملين فيها، فانعكس ذلك على زيادة حجم المستوطنات الرئيسة سكاناً ومساحة وساهم في إحضار سكان آخرين من المراكز المحيطة.

إن هذه المهمات التي اضلع بها المعبد اقتصادياً أوجدت نمطاً من المستوطنات التي أعطت شكلاً من العلاقة بين المستوطن الرئيس الذي صار يضم مجموعة من الحرفيين والصناع والعاملين في الأنشطة غير الزراعية مقابل هيمنته على ظهير واسع يحوي عشرات القرى الزراعية الصغيرة التي كانت تعمل بالنشاط الزراعي[5]. وهذا يعني تماماً خلق المراكز الحضرية وظهيرها الإقليمي، حيث إن معظم المستوطنات التي عرفت في بلاد سومر مثل أور والوركاء ونفر ولكش صارت بهذا المستوى من العلاقة في البنية الاقتصادية التي حولتها إلى مراكز خدمية ترتبط بظهيرها بعلاقات تبادلية. وأفرزت سيطرة المعبد على كل

١- مهدي - علي محمد. مصدر سابق.
٢- موسوعة العراق في التاريخ. مصدر سابق ص 212.
٣- موسوعة العراق في التاريخ. مصدر سابق ص 313.
٤- مهدي، علي محمد. مصدر سابق ص 120.
٥- المصدر نفسه ص 123 عن
adems r. mce "patterns of urbanizationin early sothern Mesopotamia" msu. 1972 p 737 ff.

المجتمع وتملكه التام لجميع الأراضي الواقعة ضمن دائرة نفوذه، مما كان لطبيعة الحياة الاقتصادية لمجتمعات سيادة المعبد نظاماً اجتماعياً جديداً مبنياً على أساس العمل الجماعي في مجال الإنتاج رغم الطابع المميز لهذا النظام وهو اختفاء الملكية الخاصة، حيث أصبحت جميع وسائل الإنتاج الرئيسة ملكاً عاماً لمؤسسة المعبد (أي لعامة الشعب). ولذلك ظهر التركيب الاجتماعي لسكان المستوطنات السومرية في ذلك النظام مكون من طبقتين رئيستين هما[1]:

1- طبقة تمثلها الهيئة الاجتماعية المشرفة على مؤسسة المعبد (طبقة مؤسسة المعبد) تتولى مهمات السلطة الدينية والدنيوية ولها امتيازات خاصة توازي امتيازات الآلهة.

2- طبقة عامة المجتمع التي تمثل المزارعين والحرفيين والعاملين في إدارة المعبد ممن ليس لهم صبغة كهنوتية، ويقع على عاتقها أعمال تقديم الخدمات وفروض الطاعة الدينية والدنيوية.

ويعود هذا الانفراد في التكوين الاجتماعي لطبقتين أولهما مالكة ومتسلطة وأخرى تابعة ومنفذة. وذلك لعدم وجود مراكز نفوذ أخرى خارج مؤسسة المعبد لها قادرة على تحقيق السطوة والملكية، كالتي ظهرت في عصر فجر السلالات (عصر دولة المدينة)[2].

لذلك حرص المعبد على إيجاد وسائل للتنظيم الاجتماعي فأصدر قوانين تفصيلية لتثبيت القواعد، والأحكام التي تحدد الروابط الاجتماعية، ونظام العائلة، والإرث، والزواج والطلاق وغيرها من عناصر التكوين الاجتماعي. ومع هذا الوضع الاقتصادي والاجتماعي الذي لازم المستوطنات السومرية في ظل سيادة المعبد لم يكن أمام تلك المستوطنات إلا أن تستجيب لتأثير تلك العوامل فتظهر صورتها نحو 3000ق.م وكأنها:

1- مراكز تضم المعبد وسلطته الدينية والدنيوية: حيث أشارت الدلائل المادية أثناء تطور بناء المعبد والطرز المعمارية التي حظيت بها تلك الأبنية إلى ما خصص لبنائه من طاقات وجهود مادية وبشرية ضخمة من الصعب تسخيرها

١- مهدي، علي محمد مصدر سابق ص 180.

٢- التي وضع لها ديكاتوف تقسيمات تبين التركيب الطبقي لدولة المدينة في ضوء دراسته لأشكال ملكية الأرض ووسائل الإنتاج، فظهر أن التركيب الاجتماعي يتألف من أربع طبقات هي: الطبقة الأرستقراطية وطبقة جماهير الشعب وطبقة التابعون وأخيراً العبيد وللمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى أطروحة علي محمد مهدي - دور المعبد ص 176.

في مثل ظروف تلك المرحلة لهذا البناء ما لم يكن لمؤسسة المعبد السيطرة الكبيرة على جميع أوجه النشاط الاقتصادي والاجتماعي الذي أشرنا إليه. كذلك لم يكن هناك دليل مادي يؤيد وجود أبنية بارزة ومميزة (كالقصر مثلاً) إلى جانب المعبد، مما يدل على أن العناية التي أعطيت لبناء المعابد كانت كبيرة، وقد جاءت بلا شك على حساب سائر المنشآت في المستوطنة نسبة لمستوى الرفاه والفن المعماري والتعقيد البنائي الذي حظيت به. ولذلك نجد أن المستوطنات السومرية أخذت تتسابق فيما بينها لإظهار طابع الفخامة على معابدها ليس من أجل التأثير في مجتمع المستوطنة نفسها فحسب، وإنما لإظهار مكانة معابدها بين المستوطنات القريبة، وصارت فخامة المعبد رمزاً للسيطرة على المناطق المحيطة بالمستوطنة. إذ إن امتداد سلطة المعبد إلى عدد كبير من القرى والمستوطنات الصغيرة المحيطة بالمستوطنة الكبيرة أدت إلى نشوء معابد متعددة تتصل بالمعبد الكبير المتميز بفخامته فكان خير وسيلة لدعم مركزها، وسلطتها على تلك المعابد، وبالتالي على كافة أرجاء ظهير المستوطن الأم الذي تحول إلى مركز قيادة دينية ودنيوية تتركز فيها الأجهزة الإدارية والخدمية. وبذلك فإن الوضع يحاكي اليوم المدن الكبرى التي تهيمن على ظهير زراعي كبير. وقد مهد هذا الشكل إلى ظهور دولة المعبد (city stat).

2- بفعل تأثير المعبد ظهرت المستوطنات السومرية على أنها أماكن تضم استعمالات الأرض المخصصة للمعبد والمرافق التابعة له من ورش ومعامل ومتاجر ومخازن، وما شابه ذلك من الأنشطة الاقتصادية التي احتلت مركز تلك المستوطنات وصار السكن المخصص لطبقة الكهنة وحاشيتهم يحيط بذلك المركز، بينما تركز سكن العاملين والشرائح الأخرى في المناطق البعيدة عن مركز المستوطنة قرب البوابات أو منطقة الميناء أو في مواقع العمل الأولى. ولم تعد المستوطنة تضم أراض زراعية ولا عاملين فيها، حيث صارت مواقعها خارج المستوطنة عند الضواحي التي تحيط بها.

أي صارت تلك المستوطنات مراكز للعمل وتقديم الخدمات لمستوطنيها وللعاملين في القرى الزراعية خارج حدودها في المنطقة المرفقة بالظهير. وهذا يعني تماماً تحول تلك المستوطنات إلى مراكز حضرية كما نفهمها اليوم (مركز وظهير).

ثالثاً: ظهور الفائض الزراعي وتطور الأنماط الزراعية ووسائلها (العامل الاقتصادي):

لقد كان لظهور الإنسان في القسم الجنوبي من العراق، وممارسته الزراعة البعلية وابتكاره لوسائل الري الصناعية الأثر الكبير في توسيع رقعة القرى،

والأراضي المزروعة التي صارت تغطي معظم أرجاء تلك المنطقة، وتصل إليها المياه عبر تلك القنوات والأنهار والترع التي حفرها أظهرت مهارة ذلك الإنسان وأصبحت تحميها سلطة المعابد الدينية والاجتماعية والاقتصادية وشرائعها الملزمة بها لأنها تعبر عن سلطة الآلهة الواهبة لرموز الحياة من أرض ومياه وسماء. مما دفع الإنسان إلى الالتصاق بتلك الأرض وعدم هجرها بحثاً عن مساكن جديدة أو أراضي زراعية جديدة. وبذلك صارت الزيادة السكانية ذات فائدة إيجابية لتلك القرى، حيث كانت تسخر طاقات السكان على نطاق واسع لتنظيف ما يحيط بأرضهم الزراعية، وتوسيع رقعة الاستيطان، وكذلك توسيع رقعة الحقول الزراعية، وتنظيمها والتفنن في إروائها[1] وزراعتها بأنواع المحاصيل، إضافة إلى زراعة أنواع جديدة من الفواكه لم تكن شائعة في البلاد، كالتين والزيتون والرمان. وهنا يذهب الدكتور أحمد سوسة إلى تقسيم تطور الأنماط الزراعية ووسائلها إلى ثلاثة أطوار[2]، وهو يخص الطورين الأول والثاني منه لحياة قرى الجنوب في العصر الحجري المعدني حتى عصر فجر الحضارة (بداية نشأة المدن) بينما يخص الطور الثالث لعصر دويلات المدن.

فالطور الأول الذي يبدأ مع استيطان الفراتين الأوائل أسلاف السومريين من سكان عصر العبيد الذين بدأت حياتهم الزراعية الأولى في الجزر المتناثرة بمنطقة الأهوار نظراً لقلة عددهم (كونهم نازحين من مناطق أخرى)، لذلك لم يمارسوا الزراعة على نطاق واسع، فاستغلوا موارد الأهوار كالسمك والطيور واقتصروا على الزراعة في التربة الرطبة (طريقة الري الحوضي)، فكانت مزروعاتهم من الحنطة والشعير، وبعض الأشجار البستانية كالعنب والتين والزيتون. فيما كانت أشجار النخيل تنتشر على ضفاف الأهوار، والأنهار، القصب الذي منه استمدت بلاد سومر تسميتها التي عرفت ب ki En Gi أي البلد التي سيدها القصب. أما الطور الثاني فقد حدث بعد زيادة السكان وزيادة الماشية التي كانوا يرعونها، ولذلك لم تعد جزر الأهوار وزراعتها تكفي لإعالتهم، فبدؤوا بإحياء الأراضي الجديدة في مناطق الأهوار بعد تسويرها بسدود ترابية ثم تجفيفها وزراعتها وريّها بواسطة فتحات تعمل في أسوارها للإرواء قدر الحاجة، حيث لم يكن ضغط الماء شديداً عليها نظراً لعدم عمقه، ولذلك لم تتطلب هذه الزراعة مجهوداً ضخماً من الفلاحين، كذلك لم تكن الملوحة لتعرف طريقها بعد إلى تلك

١- الدباغ. د. تقي - موسوعة المدينة والحياة المدنية - مصدر سابق ج 2 ص 26.
٢- الأحمد. د. سامي سعيد - موسوعة حضارة العراق - مصدر سابق ج 2 ص 156.

الأراضي فكثرت زراعة الحبوب وأنواع المحاصيل الحقلية، وشاعت زراعة أنواع كثيرة من أشجار الفاكهة وباقي المحاصيل الحقلية، إضافة إلى النخيل، والقصب الذي استمر بنمو تلقائياً.

بينما أحدث الطور الثالث وهو النمط الزراعي الأكثر تطوراً في عصر السلالات السومرية التغيرات الجوهرية في نمط، وأسلوب الزراعة التي صارت تعتمد على الجداول الطويلة التي شقت من نهر الفرات لتصل إلى الأراضي الزراعية البعيدة بعد إقامة السدود والخزانات والمبازل، مما جعل السكان السومريون أسلاف الفراتيين الأوائل ينتشرون في معظم المناطق الجنوبية من البلاد، والتي عرفت بسومر (موطن السومريين) والتي صارت تمتد من نفر (عند قضاء عفك في الديوانية حالياً) حتى أخر قراهم ومدنهم عند رأس الخليج. حيث كانت تلك المناطق تتصف بشيء من الاتساع المترامي الأطراف والمتفاوت على نهر الفرات، وصار الإرواء المباشر لا يوصل المياه إلى كل تلك الأرجاء التي لم يعد يكفيها المطر الشتوي لسد حاجتها الزراعية، ومتطلبات الحياة اليومية ولا سيما في فصل الصيف الطويل والحار، لذلك عمدوا إلى أساليب الري الاصطناعي من حفر جداول وقنوات لإيصال الماء سيحا إلى الأراضي الزراعية.

وقد ذكرت النصوص المسمارية التي دونت في العصور اللاحقة الكثير من أسماء القنوات والأنهار التي صار من الصعب تحديد أماكنها[1]، واستخدموا شتى الوسائل لرفع المياه إليها (الري بالوساطة)، والتي شكل إنجازها خلاصة الاستجابة الفعالة response لقوى التحدي chalange التي فرضتها طبيعة المنطقة القاسية، والتي يصفها توينبي بأنها أولى عناصر البناء الحضاري في بلاد ما بين النهرين، والتي يمكن تلمسها في الإنجاز المادي المندثر أو ما خلفته نصوص المقالات المسمارية التي استنتج منها مستوى التقدم الفكري عند العراقيين آنذاك. وتشير إلى مدى إلمام العراقيين بشؤون الزراعة وأصولها[2] ابتداءً من تنظيم وتطهير الحقول من الأعشاب الدخيلة والحشائش والاعتناء بحراثتها وبذرها وحصادها. وقد عرف هؤلاء الرواد الحضاريون الخصائص المناخية وتأثيرها على الزراعة، حيث عرفوا مواسم الفيضان ومواسم زراعة كل محصول من المحاصيل الصيفية والشتوية، وعدد مرات زراعة الأرض في السنة، وعرفوا من أجل هذا الغرض التقويم الزمني وأسماء الأشهر وسموها بأسماء الفعاليات الزراعية[3]. فالشهر الأول كان يسمى بشهر إنتاج الحقل، والثاني عشر بشهر حصاد الشعير، فإن لم يكن ناضجاً في بدء هذا الشهر جعلوه شهراً كبيساً حتى يقع الحصاد فيه، وكان شهر آب عيد أكل الدخن والحبوب، وشهر أيلول شهر تذرية

١- الأحمد. د. سامي - موسوعة حضارة العراق - مصدر سابق ج 2 ص 175.
٢- باقر، طه - توينبي وفلسفة التاريخ - مجلة أفاق عربية العدد 7 آذار ص 18.
٣- الأحمد، د. سامي - مصدر سابق ص 155.

الحبوب. وغيرها من الشهور المقترنة بأسماء المحاصيل. وبرزت لذلك الآلهة الزراعية المختلفة لحماية الأرض وزراعتها ومباركتها وتوفير المياه لها، وصارت المعابد تصدر الوصايا والشرائع التي توجه وتحمي وتبارك الإنتاج الزراعي ورافق ممارسة الزراعة في القرى تربية أنواع من الحيوانات كالأغنام والماعز والبقر والجاموس لأول مرة[1]. والحمير ثم الخيول فيما بعد، وصارت الثروة الحيوانية تشكل عنصراً مهما في الاقتصاد السومري سواء في منتجاتها أو في النقل والحمل وأعمال الحقل، وقد وجدت نقوش تلك الحيوانات على معابد وشعارات وأختام العصر السومري، وذكرت في قوانينهم وتشريعاتهم من أجل حمايتها بالقدر الذي عنوا به بالزراعة، فكان نتاج ذلك اقتصاداً زراعياً متطوراً جعل بلاد الرافدين توصف بالثراء وبلاد سومر بالرخاء.

الذي كانت أهم نتائجه ما يلي:

1- ظهور فائض في الإنتاج الزراعي يزيد عن حاجة السكان الاستهلاكية، فكانوا يقومون في بادئ الأمر بمبادلته مع باقي المنتوجات الحيوانية كالسمك الذي يجلبه الصيادون من الأهوار، والحليب واللحوم والجلود من الرعاة أنصاف البدو الذين كانوا يجوبون المناطق الظهيرة للقرى الزراعية عند حافة الصحراء[2]. وبهذا خرجت القرية عن عزلتها، إذ لم يعد اقتصادها يوصف بالاكتفاء الذاتي كالذي كانت عليه في العصور السابقة.

وعلى الرغم من عدم وجود دلائل أثرية مكتوبة أو شواهد مادية على مكان تبادل تلك المنتوجات (كالأسواق)، فربما كانت أماكنها هي الفسحات عند بوابات القرى أو مداخل المعابد الرئيسة[3] إلا أنه من المؤكد أن هذه الصلة التبادلية كانت قائمة وبشكل تجارة داخلية وكانت وساطة النقل الأولى للتبادل هي الحيوانات.

2- عندما تعددت حاجات سكان المستوطنات الجنوبية من بلاد سومر، طلبوا المنتجات الغذائية الحيوانية، ووصل الأمر إلى طلب المعادن والأحجار التي استخدمت في بناء المعابد والدور السكنية وفي الصناعات التي صارت حاجتها ضرورية لمجتمعات الزراعة والصيد على السواء. لعب الفائض دوراً كبيراً في إمكانية تلبية هذه المتطلبات والحصول عليها عن طريق المتاجرة الخارجية بأنواع المنتجات النباتية من زيوت وخمور ومصنعات وتصدير سلعاً تجارية تكافئ المواد المستوردة من معادن وأحجار وأخشاب[4].

١- الأحمد، د. سامي مصدر سابق ص 155.

٢- الدباغ، وتقي - موسوعة المدنية والحياة المدنية - مصدر سابق ص 27.

٣- الهاشمي، رضا جواد - موسوعة حضارة العراق - مصدر سابق ج 2 ص 216.

٤- الهاشمي - مصدر سابق - ص 200.

3- دفعت عملية المتاجرة بالفائض الزراعي والحيواني داخل وخارج بلاد سومر لإيجاد فئات كبيرة من مجتمع المستوطنات السومرية تنهمك بشؤون صناعة وتحضير وشحن السلع للمتاجرة بها. وكذلك نشأت طبقة أخرى تقوم بتهيئة وسائط النقل المائي وأخرى لتسيير القوافل التجارية أو بيع وتصريف الحمولات التجارية. وغيرها من المهن المرافقة لهذا القطاع، مما يدل على نشوء نشاط آخر غير الزراعة التي كانت النشاط الأساسي للمستوطنات السومرية، حيث صار النشاط التجاري والخدمات المرافقة له نشاطاً لا يقل في أهميته عن الزراعة حيث شاركا في بناء الاقتصاد السومري نظراً لتعدد الاختصاصات وتقسيمات العمل التي أوجدوها. بينما انتقل النشاط الزراعي إلى خارجها في الظهير القروي، وهذا يدل على تحولها إلى مدن تتصف بتقديم النشاط الخدمي.

4- دفعت عملية المتاجرة بالفائض الزراعي إلى إيجاد سلسلة من الابتكارات التي تكمل عملية المتاجرة، يقف في مقدمتها ابتكار السفينة والكتابة والأختام الأسطوانية والعربة التي كان لها الدور الحاسم في تحول قرى القسم الجنوبي إلى مستوطنات حضرية نظراً لمزاولة شريحة من سكان المستوطنات لعملية ابتكارها والاستمرار بصناعتها لتلبية متطلبات العمل التجاري، ونظراً لتعدد استعمالات الأرض المخصصة للإنتاج.

رابعاً: نشاط حركة الابتكارات وظهور تقسيمات العمل (العامل الفني):

تعد سلسلة الابتكارات التي بدأت في نهاية عصر الوركاء، والدور شبه الكتابي من أهم العوامل التي دفعت إلى نشوء وتشكيل المراكز الحضرية الأولى (المدن الطلائع) بسبب استعمالات الأرض التي خلقتها حركة الابتكارات، والتي شكلت ما يعرف باستعمالات الأرض الحضرية، إضافة إلى انهماك شريحة كبيرة من المجتمع العراقي القديم في المستوطنات السومرية بشؤون تصنيع وصيانة تلك المبتكرات، والتي من أهمها السفينة الشراعية التي دفعت إليها عملية المتاجرة بالفائض الزراعي، ومهد لها وقوع معظم المستوطنات على البحر وضفاف الأنهار، والتي عززت بسلسلة أخرى من الاختراعات والابتكارات المكملة كابتكار العربة، واختراع الكتابة والأختام الأسطوانية، وما لازمها من فنون النحت والنجارة والصياغة والزخرفة والبناء. حيث خلقت ممارستها قطاعاً آخر غير الزراعة التي كانت الأساس الاقتصادي لتلك المستوطنات، حيث صار النشاط التجاري والخدمات المرافقة له قطاعاً لا تقل أهميته عن الزراعة التي شاع وجودها خارج المستوطنات الكبيرة، بينما انحسرت مزاولة النشاط التجاري

والخدمات المرافقة له داخل تلك المستوطنات. فأصبح يلازمها حشد من الأعمال التي أوجدت ما يعرف بتقسيمات العمل نظراً لتنوع التخصصات المهنية.

ولذا سنتطرق إلى أهم تلك المبتكرات ودورها في تحول القرى الزراعية إلى مدن مستندين إلى المبدأ الذي يحكم نشوء الابتكارات وتطورها وينص على أن "كل فكرة لا بد أن تكون قد اعتمدت على أخرى سابقة لها، وإن حرية ابتكار ما نشتهي وهم لا وجود له"[1] وإن أي ابتكار لكي يظهر يستلزم:

1- ظهور الحاجة إلى نوع الابتكار.

2- وجود أوليات تخلق الفكرة في ذهن صانع الابتكار.

3- توفر المواد التي يمكن استخدامها في تنفيذ فكرة الابتكار.

أ- ابتكار السفينة الشراعية:

صار معلوماً أن العراقيين القدماء من سكنة القسم الجنوبي توصلوا إلى ابتكار السفينة عندما دعت الحاجة إلى المتاجرة بالفائض الزراعي، بعد أن صارت عملية نقل السلع التجارية من منتجات حيوانية ونباتية مصنعة لا يمكن أن تتم بوسائط النقل التقليدية المتمثلة بالحيوانات مقابل حاجة تلك القرى إلى الأخشاب والمعادن التي لم تكن متوافرة لديهم. لذلك فقد اقتصر استخدام الحيوانات على نقل المواد الثمينة والخفيفة الوزن كالذهب والفضة والأحجار الكريمة والتوابل، والتي عرفت الطرق التجارية بأسمائها كطريق الحرير وطريق[2] البخور، وغيرها من المواد التي تميزت بصغر حجمها، وقلة تكاليفها، وإمكانية إيصالها إلى مسافات بعيدة دون تلف. ولتلبية حاجة مستوطنات سومر من الأحجار والأخشاب والمعادن فقد وجب التفكير بالوساطة التي تتميز بكبر حجمها لنقل كميات أكبر من السلع المتنوعة (التي تغطي كميتها نفقات الرحلة وتفيض) وتتميز بقدرتها على الوصول إلى مسافات بعيدة لتحقيق الربح، وتوفير المادة المطلوبة. فكان التفكير بالسفن الشراعية التي تقوم بهذه المهمة موسعة نظراً لنطاق المتاجرة الذي لم يعد يقتصر على المواد الثمينة بل شمل المواد الغذائية والصناعية والإنشائية والحرفية. وخير دليل على ذلك وجود فخاريات عصر العبيد التي أنتجت بعد ظهور السفينة في مناطق واسعة من الخليج العربي وفي عيلام، مما يدل على أن أصل تلك الفخاريات من سومر ونقلت إلى تلك المناطق. وقد دلت المخلفات المادية الأثرية والنصوص المسمارية المكتشفة لاحقاً في المواقع التي تعود إلى الألف الثالث، وما تلاه عن المتاجرة بمثل تلك المواد والمواطن المتاجر بينها، وعن أنواع السفن وحمولاتها، فقد جلب الذهب والفضة

١- رشيد. د. فوزي. الاستشراق وأثره.... مصدر سابق ص 12.

٢- رشيد. د. فوزي "الاستشراق وإثره... مصدر سابق ص 11.

وللازورد والقصدير[1] من إيران، بينما جلبت الأصداف والأحجار الكريمة وبعض المعادن كالنحاس من الجزيرة العربية والخليج العربي (البحرين)، ومكان (عمان)، أما المتاجرة مع الهند فقد تخصصت بجلب العاج والعقيق. ومن أفغانستان يجلب اللازورد، ومن باكستان بجلب الخشب وبعض المعادن، بينما استمرت المتاجرة مع الأناضول ومنذ العصر الحجري الحديث لجلب الحجارة الأوبسيدية إلى جانب معظم المواد المعدنية ولا سيما النحاس والذهب[2]، واستمر جلب البخور والتوابل والحرير من الهند والباكستان. وبذلك فقد أحدث ظهور السفينة الشراعية انقلاباً كبيراً في طبيعة العلاقات التجارية للعراق القديم بشكل عام والمستوطنات السومرية ذات الموانئ بشكل خاص، وانعكست على تركيبها ونسيجها الحضري وأساسها الاقتصادي. أما عن فكرة السفينة الشراعية فتعود إلى أقدم نموذج طبيعي لوسائل النقل المائي التي استخدمها الإنسان في القسم الجنوبي من العراق المتمثلة بجذوع النخيل التي لها القدرة على البقاء طافية رغم ما يضاف إليها من أوزان، فضلاً عن شكلها الطويل الذي يمكنها من الانسياب مع جريان الماء بشكل أفضل من بقية المواد[3]. وسرعان ما تطورت هذه الوسيلة إلى صناعة القوارب بعد أن دخلت عليها التحسينات الضرورية لتكون ملائمة أكثر، ومن أولى هذه التحسينات تفريغ وسطها الخشبي ليكون وقاية للإنسان وحاجياته من تأثرات الماء، ثم القيام بنحت الجزء الأمامي وجعله مدبباً ليسهل

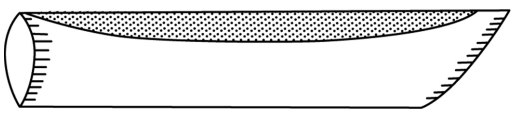

شكل 31: شكل الجذوع بعد إدخال التحسينات عليها (فوزي رشيد- الاستشراق 1990)

شكل 32: نموذج السفينة الشراعية عثر عليه في مدينة أريدو، ويرجع تاريخه إلى بداية الألف الرابع قبل الميلاد (د. فوزي 1995)

١- لم تكن تلك المعادن تجلب لجمال منظرها واستخدامها كحلي فحسب، بل لأنها ذات أهمية سحرية، ولعمل التمائم وممارسة بعض الطقوس الدينية (موسوعة المدينة والحياة المدنية ص 27).

٢- الهاشمي، رضا جواد - موسوعة حضارة العراق ج 2 ص 200-208.

٣- رشيد، د. فوزي "وسائط النقل المائية والبرية في العراق" مجلة النفط والتنمية - عدد خاص. بغداد 1976- ص 100.

عليها شق طريقاً في الماء[1]. والشكل رقم (31) يمكن أن يصور حالة تلك التحسينات، فكان ذلك أقرب إلى شكل النموذج الأولي للنقل الذي اهتدى الإنسان العراقي في الجنوب إلى صناعته بدلاً عن النموذج الفخاري الذي تم العثور عليه في موقع أريدو (3) (شكل 32) الذي يعود إلى 4000ق.م، عندما كانت تقع على البحر وتطل على نهر الفرات، حيث كان نهري دجلة والفرات من أهم طرق المواصلات القديمة حين كانا يصبان بشكل متصل في الخليج العربي إذ لم يكن هناك وجود لشط العرب آنذاك.

وبعد سلسلة من التطورات والتحسينات على القوارب والتي أصبحت لاحقاً شراعية اهتدى الإنسان إلى صناعة السفينة الشراعية التي لعبت دوراً فعالاً في حياة المستوطنات الجنوبية والمدنية.

أما عن صناعة السفينة من حيث أنواعها وحمولاتها وتصاميمها فقد وردتنا العديد من النصوص المسمارية التي توضح أسماء وتفاصيل كل ذلك. على الرغم من أن التسمية العامة للسفينة أو القارب جاءت من السومرية GISMA التي كانت علامتها. إلا أن أنواعاً كبيرة من السفن كانت قد صُنِعَت في بلاد سومر، فهناك السفن البحرية التجارية GISMA CUR وهناك سفن نهرية شراعية وغير شراعية gisma dirig, ga, bati من غير مجاديف أو بمجاديف تسير عكس مجرى التيار واسمها gisma gab rug u، ثم السفن الخاصة لنقل المسافرين gisma us وسفن الاحتفالات الرسمية[2]. وإن جميع تلك السفن ولا سيما ذات الحمولة التجارية كانت تصنع في معظم الأحيان من خشب الأرز الذي كان يستورد من خارج بلاد سومر، وباستخدام المسامير الخشبية التي كان يصل عددها في السفينة الكبيرة إلى 7400 مسمار وكانت سعة تلك السفن تتراوح بين 5-120 كورا.[3] (12 طناً) ولكن السفن التي كانت أكثر شيوعاً ذات سعة 60 كورا، والتي لازالت إلى يومنا هذا الأكثر استعمالاً. أما عن تصاميم السفن فقد أرشدتنا النصوص المسمارية إلى وجود أكثر من 400 نوع من أنواع السفن المصممة لشتى أنواع المواد المتاجر بها[4] من شعير

١- رشيد، د. فوزي - مصدر سابق 1976 ص 100.
٢- المصدر السابق ص 102.
٣- المصدر السابق ص 103.
٤- للمزيد من المعلومات عن تجارة العراق القديم تراجع المصادر التالية:

وحنطة وزيوت وخمور ومصنعات حيوانية ونباتية، إضافة إلى السفن الكبيرة المعدة لنقل الأخشاب والأحجار التي ساهم جلبها في حركة الإعمار التي حولت قرى الجنوب إلى مدن مع بداية العصور التأريخية.

ب- ابتكار العربة:

جاء ابتكار العربة نتيجة الحاجة إلى نقل السلع والبضائع التي تحملها السفن التجارية إلى موانئ المستوطنات السومرية (أور أريدو الوركاء) عند الحافات المائية لتلك المستوطنات، فكان يتوجب نقلها إلى الداخل لتتوزع على أماكن تصنيعها واستخداماتها المختلفة. والعربة كغيرها من مبتكرات الإنسان العراقي القديم مرت بمراحل تطورية بعد أن انبثقت الفكرة الأولى لصناعتها والتي كانت تحاكي فكرة الزلاقة (عربات لا تملك عجلات) لذلك جاءت الكلمة السومرية المعبرة عن العربة لا تختلف عن معناها كزلاقة gis, gigir-umbin-nu-tuku (انظر الشكل (33). علماً بأن الزلاقة نفسها كانت فكرتها مستوحاة من شكل القارب كونها تستخدم للتنقل في المياه الضحلة، والأراضي الطينية في منطقة الأهوار[1]، حيث الطبيعة الجنوبية لبلاد سومر.

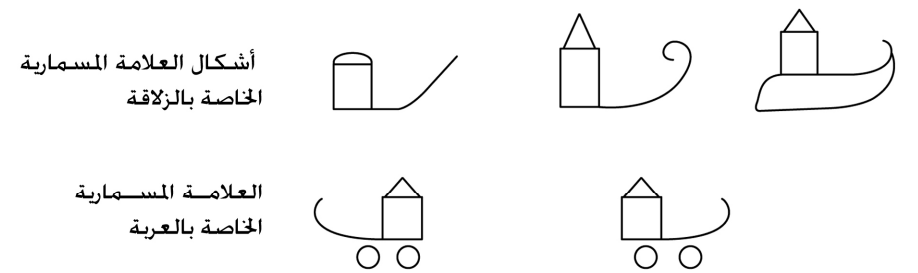

شكل 33: أشكال العلامات المسمارية الخاصة بوسائط النقل
(فوزي رشيد- وسائط النقل 1976)

ولقد صار معلوماً أن العربة وبغض النظر عن الوسيلة التي تسحبها سواء كانت ثيراناً أو حميراً أو بغالاً كانت تتألف من جزئين هما العربة والعجلات. وإذا كانت الأدلة الأثرية لا تعطي دليلاً كافياً حول استخدام العجلة فإن المصادر الكتابية أوضحت أن استخدامها كان مع العربة، بدليل أن الكلمة السومرية umbin وصورة هذه العلاقة تعني (المخلب أو كف الحيوان) أي أطرافه، لذلك وما دامت العجلة تمثل أطراف العربة فإنها سميت العلامة نفسها الممثلة لكف الحيوان، ولو أن العجلة

بلسم صادق الجشمعي (تجارة العراق القديم) أطروحة دكتوراه مقدمة لمجلس معهد التاريخ العربي ك 2 1996.- الهاشمي. رضا. جواد. موسوعة حضارة العراق ج 2 ص 195-236.

١- رشيد، فوزي... وسائط النقل المائية.. مصدر سابق ص 108.

استخدمت لأغراض أخرى قبل استخدامها مع العربة[1] لذلك أخذت التسمية نفسها الكف[2]. أما الأصل الذي تطورت عنه العجلة فمن المؤكد أنه جاء مستوحياً من استخدام جذوع الأشجار التي كانت توضع تحت الأحمال الثقيلة عند نقلها من مكان لآخر، لذلك كانت أولى العربات بعجلات أربع لنقل البضائع gis. Mar. gir. Da بعد مدة صغيرة ظهرت العربة ذات العجلتين المسماة بالسومرية gis-gigir التي تؤكد فكرتها أنها مستوحاة من شكل المحراث الذي تم تصميمه عبر العصور السومرية الأولى[3] شكل رقم (34)، والتي ظهر استخدامها في المجالات الحربية لخفتها وسرعتها، إضافة إلى ذات العجلات الأربع الخاصة بالنقل (شكل رقم 35). ثم شاع استخدام العربات الأخرى لأغراض وشخصيات مختلفة كعربة الملك، وعربة الإله وعربة الحاشية ونقل البريد... وغيرها[4]. أما المواد التي استخدمت لصنع العربات فيما لا شك فيه أن الخشب هو المادة الأساسية التي كانت تجلب من الخارج لصناعة الصندوق والعجلات، إضافة إلى استخدام الرصاص لتثبيت أجزاء العربة مع بعضها، وكذلك استخدم النحاس على شكل مسامير كما استخدم لتغليف إطار العجلة، إضافة إلى استخدام الجلد والصوف لصنع الأعنة والمقاعد، واستخدام الدهن الحيواني لتفادي أضرار الاحتكاك في أجزاء العربة.

شكل 34: عربة ذات عجلتين من معبدين في خفاجي، حوالي 2800 ق. م توحي أن فكرتها مستوحاة من المحراث (فوزي رشيد- وسائط النقل 1976)

ج- الكتابة:

من المؤكد أن إنسان العراق القديم الذي لازم العصور الحجرية، والذي تعود جذورها إلى 3500 ألف سنة مضت كان لابد وأن تكون له لغة أو مجموعة لغات يتخاطب ويتفاهم بها مع أبناء بلدته، وإلا كيف كان ذلك الإنسان يتبادل الرأي ويوجه ويتعاون مع الآخرين لقهر قساوة الطبيعة وسلوك سبل الحياة التي عرفها. غير أننا لا نملك أي دليل عن تلك اللغات. لأن وسيلة نقل اللغة وحفظها للأجيال لم تكن

قد عرفت طوال القسم الأكبر من تلك العصور ألا وهي الكتابة. لكن ما أن حل النصف الثاني من الألف الرابع حتى اخترع الإنسان العراقي الذي سكن

١- لازال هناك اعتقاد أن العجلة ظهرت في عصر حلف.
٢- المصدر السابق ص 109.
٣- رشيد، د. فوزي.. مصدر سابق (1976) ص 110.
٤- المصدر السابق ص 113.

القسم الجنوبي من العراق ذلك الأسلوب الذي عرف بالكتابة، والذي نقل لنا الكثير من أفكارهم ومعتقداتهم وعلومهم ومعارفهم، وكان بهذا الإنجاز أول الطلائع البشرية التي عرفت فن الكتابة بل كانت أول كتابة عرفت في العالم حتى الآن. وقد جاءت تلك الكتابات بهيئة علامات صورية ورمزية مدونة بالخط المسماري[1]. وقد وصل إلينا من تلك الكتابات ما يعود تاريخها إلى أواخر الألف الرابع (عصر الوركاء الأخير وعصر جمدة نصر) الآلاف من الألواح الطينية المكتشفة وهي الآن سجل حافل لنقل إنجازات أعظم حضارة عرفها التاريخ تلك التي نشأت، وترعرعت في البلاد التي عرفت بسومر. ظن المنقبون في بادئ الأمر أن لغة تلك النصوص المسمارية المكتشفة في مدن العراق القديم هي لغة البابليين والآشوريين، وفي عام 1852 أثار أحد الباحثين حقيقة وجود بعض النصوص المسمارية المكتشفة في مدينة نينوى، وهي تضم جداول ثنائية اللغة كانت الأولى مكتوبة بما يعرف لديهم باللغة الآشورية أو البابلية، أما اللغة الثانية فكانت لغة جديدة عليهم ولا علاقة لها باللغتين السابقتين (إلا من حيث أسلوب الكتابة المسمارية). وقد أطلق هذا الباحث واسمه (رولنسي) وهو إنكليزي الجنسية على هذه اللغة اسم اللغة الأكدية، وأشار إلى وجود العديد من النصوص المكتشفة في بلاد بابل مدونة بهذه اللغة. مع أنه أخطأ إذا سماها باللغة الأكدية ونسبها إلى الأكديين الذين سكنوا بلاد أكد وسومر بعد السومريين، إلا أنه يعد أول مكتشف لهذه اللغة التي عرفت بلغة السومريين لاحقاً. وثم استطاع (تيوليوس أوبرت) عام 1869 إثبات أن تلك اللغة تعود إلى أقوام سكنوا قبل الأكديين في البلاد التي عرفت بسومر وأسماهم بالسومريين، وبالتالي فإن ما وجد من ألواح ورقم طينية تحمل الخط المسماري غير الآشوري والبابلي هي ألواح مكتوبة باللغة السومرية وتعود إليهم. وخلص إلى القول بأن السومريين وأسلافهم كانوا أول

١- سليمان. د. عامر - موسوعة حضارة العراق- مصدر سابق ص 273.

من استوطن أرض جنوب العراق وعندما عرفوا الكتابة كتبوا مفردات لغتهم بها.

هذا الاستنتاج الذي أنكره بعض العرب والأجانب لنفي الأصالة العراقية للسومريون شعباً ولغة مستندين في ذلك إلى أراء أحد العلماء في مجال الدراسات المسمارية الذي شرع يفند من أن السومريين وأسلافهم ليسوا أول من استوطن جنوب العراق عن طريق دراسته وتحليله أقدم الآثار المادية المكتشفة في جنوب العراق[1]، والمعبرة عن تراثهم اللغوي الذي خلفوه. مدعياً أن العديد من المفردات اللغوية التي وجدت في اللغة السومرية، والتي نقلت ذلك الإرث الحضاري العظيم للسومريين هي مفردات دخيلة على لغة السومريين، وجاءت إليهم ضمناً من أقوام كانوا قد سكنوا قبل السومريين وإليهم تعود تلك المفردات. وهو بذلك يريد أن يقول إن السومريين انحدروا من غير هؤلاء الأسلاف مما يسمح بالتشكيل الاستشراقي المطروح حول أصل السومريين. حيث زعم هذا المستشرق وهو الأستاذ (بينولاندر بيوكر)[2] بعدم أصالة السومريين العراقية وأنهم أقوام هاجروا من بلاد أخرى مستنداً في ذلك إلى مجموعة من الأدلة المادية والفكرية: أولها الدليل اللغوي حيث راح يثبت عن طريقه بأن لغة السومريين بعيدة عن تلك الأسماء العراقية الأصيلة التي أوجدها سكان القسم الجنوبي الأوائل وهي أسماء خاصة بأسماء المدن والأنهار في العراق، وكيف أن تلك الأسماء صارت كلمات دخيلة على اللغة السومرية بحجة أن من ينحدر من أصل الشيء يحمل معظم صفاته أو يفقد جزءاً منها، وبالتالي إذا كان أباء السومريين الذين حلوا بعد أسلافهم المنحدرين من شمال العراق، وكونوا سكان العبيد أو من يطلق عليهم بالفراتيين الأوائل يعدون أول من سموا تلك المهن والمدن والأنهار في جنوب العراق فلماذا جاءت اللغة السومرية الصورية

١- سليمان، عامر - موسوعة حضارة العراق. مصدر سابق ص 273.
٢- رشيد، فوزي - الاستشراق وأثره... مصدر سابق ص 36.

لتكتبها بما توحي إليها الكتابة المسمارية الصورية شكلاً دون أن تحمل المعنى الحرفي نفسه.

هنا يمكن القول إذا كان الفراتيون الأوائل (العبيد) هم الذين أطلقوا كلمة سومر على الأرض الجنوبية من السهل الرسوبي التي أصبحت موطن من عرفوا بالسومريين، فلأن تلك الأرض لا يمكن الاستفادة منها لأغراض الزراعة ما لم تحفر فيها القنوات لإيصال الماء إليها، وما لم تحرث أرضها، وفي ذلك الزمن كان حفر القنوات وحرث الأرض يتم بوساطة الآلة التي لا تزال إلى اليوم تسمى (بالمر) التي تلفظ سومرياً بمار mar أيضاً وهو المقطع الثاني من كلمة سومر ليبقى المقطع الأول (سو) الذي يعني بالسومرية الجلد أو سطح الأرض ويراد به هنا (سطح أرض سومر)، وبذلك تكون كلمة سومر (المصاغة من المقطع سو والمقطع مر) تعني الأرض المحفورة بالمر)[1]. وهنا قد يثار التساؤل الآتي: إذا كان السومريون هم أبناء هؤلاء الأوائل الذين سمو منطقتهم بالأرض التي تحفر بالمر ونطقوها سومر، وعرفت هكذا أيضاً عند أحفادهم السومريين فلماذا لم يكتبوها كذلك بل رمزوا لها بالحروف ki-en-gi؟ ذلك لأنّ السومريين أنفسهم وبعد ما يزيد على 1500 سنة على تواطن أسلافهم وإطلاقهم لكلمة سومر على البلاد التي سكنوها كانوا يجهلون الحقيقة التي أشرنا إليها في معنى كلمة سومر، كما نجهل نحن اليوم معنى كلمة عراق أو معنى دجلة والفرات لذا رمزوا لسومر بأبرز ما تميزت به تلك الأرض وهو نبات القصب الذي كان ولايزال ينمو بشكل هائل في تلك المنطقة، وصاروا يرمزون بلغتهم على منطقتهم المسماة سومر بـ (ki.En.Gi) الأرض التي سيدها القصب، وهكذا باقي الأشياء التي عرفت أسماؤها القديمة بمعانيها التي لا تطابق كتابتها السومرية الصورية.

ومن هنا كانت أسماء المدن الرئيسة في العراق وأسماء النهرين الخالدين دجلة والفرات، وبعض المهن التي عرفها وسماها، ونطقها سكان العبيد الأوائل،

١- رشيد، د. فوزي - مصدر سابق ص 21.

ولـم يعرفـوا كتابتهـا فـي حينهـا لأن الكتابـة لـم تكـن تعـرف بعـد. وإنّ أحفـادهم السومريون عندما عرفوا الكتابة الأولى (الصورية ثم الرمزية المسمارية) ذهبوا إلى كتابتها بالشكل والصورة التي تعبر عنها من جهة مع فقدان أو إضافة حروف فرضتها فترتهم اللاحقة كما هي لغتنا العربية اليوم، والتي شاع فيها اللحن والتبديل وتعددت لهجتنا حسب مناطق وفترات العراق الحديث. وهكذا حصلت أريدو وأور والوركاء على رموز غير معانيها القديمة، بينما أصبحنا نعرف معناها الآن التي تشكل رموزها السومرية أقرب الدلائل إلى مكانها واسمها الأول[1].

أما كيف نشأت الكتابة وتطورت فهذا يعود إلى بنود القانون الذي يوجب هنا تحديد الحاجة إلى الابتكار: أي ما هي الحاجة التي أدت إلى ظهور الكتابة؟ وما هي الأوليات التي شجعت على ظهور الكتابة؟ وما هي المواد التي استخدمت للكتابة؟ فإذا ما أخضعت نشأة الكتابة في العصر السومري إلى هذه العوامل سنجد أن ظهورها قد ارتبط بحاجة سكان القرى الجنوبية إلى تدوين شؤون حياتهم الاقتصادية التي تعاظم شأنها نتيجة تحسن، واتساع إنتاجهم الزراعي الذي صار يفيض ويذهب إلى المتاجرة، لذا كانت الحاجة إلى تدوين كميات، وأحجام وأسماء المواد التجارية والصناعية والمصنعة محلياً والمستوردة من خارج البلاد. وبالفعل ظهرت بوادر الكتابة بعد فترة قصيرة من توطيد العلاقات التجارية بين العراق ومختلف مناطق الخليج العربي. ولقد كانت الكتابة الأولى صورية إلاّ أن التدوين كان بوساطة رسم صورة للأشياء المراد كتابتها، أي أن كل صورة تمثل كلمة، فكانت أولى تلك التعابير تمثل أشكالاً صورية لمختلف الحيوانات والآلات الزراعية يمكن أن نعكس أهمها في جداول الشكل (35)، وقد ظهرت الكتابة الصورية piclogrphi لأول مرة في تاريخ الحضارة العراقية القديمة في أوروك في عهد طبقتها الرابعة[2]، وفي أحد معابدها التي تعود إلى 3500ق.م في العصر المسمى بالشبه الكتابي protoliterate الذي يمثل نهاية الدور الثاني والأخير من عصر الوركاء وعصر جمدة نصر[3].

١- ومن بينها اسم مدينة أور مثلاً الذي يعني أخت البحر.

٢- عثر في هذا المعبد على أكثر من ألف رقيم طيني يتضمن وثائق اقتصادية بأقدم أنواع الكتابة وبأبسط أشكالها الصورية (أ. د بهيجة خليل موسوعة حضارة العراق ج 2 ص 22.

٣- د. عامر سليمان - موسوعة حضارة العراق ج 2 ص 274.

اللفظ السومري للعلامة	المعنى	أُرُك الطبقة الرابعة	أُرُك الطبقة الثالثة	أور الكتابات الأولى	فارة أبوصلابيخ	الفترة الأكدية	سلالة أور الثالثة	الحديث
ساك	رأس إنسان							
دا	يد							
سانكا	كاهن							
أن	سيّد							
أُدُ	خروف							
مَشِن	طائر							
كَر	سمكة							
ثُر	حظيرة							
أين	محراث							
دُك	جرّة							

شكل 35: تطور الكتابة الصورية إلى رمزية

بمعنى أن فكرة التدوين جاءت عن طريق رسم الصورة للشيء المراد كتابته، وهذه الناحية بالذات تؤكد أن فكرة الكتابة المسمارية قد ظهرت في العراق ولم تنتقل إليه من مكان آخر بوساطة شعب مهاجر (ظن أنه الشعب السومري) لأن الكتابة الصورية كانت أولى مراحل الكتابة في حياة جميع الشعوب التي عرفتها لأول مرة[1]، ثم كانت الإضافات الأخرى التي ادخلها العراقيون القدامى على الكتابة الصورية والتي مرت بمرحلتين:

١- للمزيد من المعلومات تراجع المصادر التالية: أ- موسوعة حضارة العراق ج 1 ص 221. ب- رشيد، د. فوزي "الاستشراق وأثره في الحضارة القديمة.

الأولى: هي الرمزية التي جعلت الصور المرئية تعبر عن الأفعال والصناعات والأشياء المعنوية مثل صورة القدم التي صارت تعبر عن القدم وجميع الأفعال التي تقوم بها القدم.

المرحلة الثانية الصوتية: وهي المرحلة التي أخذ فيها من الصور أصواتها فقط وأهملت معانيها، ومن أصوات تلك الصور أخذ السومريون يدونون لغتهم أي إنهم أعطوا أصواتاً للعلاقات الرمزية تناسب لغتهم ولكن بشكل مجرد عن المدلولات الصورية والرمزية.

أما أين كتب السومريون تعابيرهم وكيف وما هي المواد المستعملة للكتابة؟ إن هذا الأمر المكمل لعناصر الاختراع (بعد الحاجة والفكرة كانت بمتناول السومريين آنذاك عبر توفر القصب الذي صارت قطعه منه تقابل ريشة القصب نفسها اليوم) تستخدم بشكل مميز دون سواها من المواد الأولية المتوفرة للكتابة على قطعة طريه من الطين الذي إذا ما جف ولا سيما بعد صهره يصبح قوياً غير قابل للتلف بسهولة، ولذلك فقد حوت أرض العراق على آلاف الرقم الطينية المكتوبة صورياً التي تغطي بتاريخها الفترة قبل الألف الثالث ق.م، وهي نهاية عصر استخدام هذا الصنف من الكتابة التي وجدت معظمها في أماكن المعابد كما أسلفنا، ولم يقف فضل السومريين على اختراع الكتابة بوصفهم أول من وجدها دون أن تصل إليهم من مكان آخر بل طوروا المواد المستعملة في ممارستها. فبعد أن استعملوا قطع القصب للكتابة على الطين راحوا يشكلون من تلك القطع ما يشبه القلم اليوم ذا الرأس المثلث الذي إذا ما طبع رأسه على الطين لرسم المقطع الكتابي ظهرت رموز الكتابة بشكل يشبه المسامير، ولذا سميت الكتابة السومرية بالكتابة المسمارية[1].

أما عن شكل وحجم القطع الطينية المكتوبة فكانت تحمل شكلاً بيضوياً أو دائرياً تقريباً يختلف عن الرقم الطينية المتأخرة ذات الشكل المستطيل، وكان حجمها يتراوح بحجم علبة الثقاب، وهي الأكثر استخداماً والآخر بحجم دفتر سجل كبير، وهي ما حوتها المعابد والمحافل الرسمية[2] آنذاك. مما يدل على أنها نمط وظيفي خصص له مكاناً من استعمالات الأرض سواء ضمن المعبد أو في تلك

١- رشيد، د. فوزي - الاستشراق وأثره مصدر سابق ص 13.

٢- ساكز، مصدر سابق ص 43.

المحافل التي كانت تتولى مهمات الكتابة التي وصل منها إلى يد المنقبين وعلماء الآثار ما يتراوح بين[1]:

1- وثائق إدارية جاءت من مدن أوروك وأور فارة.

2- وثائق ونصوص جاءت معظمها من حكام لجش.

3- وثائق وإنجازات أدبية كالتراتيل والتعاويذ وشرائع قانونية وقرارات شرعية وأساطير وأمثال ومما وصل بكميات كبيرة من مدينة نفر.

4- أما فترة سلالة أور الثالثة فإن المقدار الأكبر من نصوصها المختلفة وجدت في أور نفسها ونفر ولكش وجوجه[2].

د- ابتكار أو اختراع الأختام الأسطوانية:

لكي تكتمل مهمة الكتابة في تدوين شؤون المستوطنات الاقتصادية والاجتماعية بشكل عام والدينية بشكل خاص، وتصان أمانة التدوين اخترع السومريون الأختام الأسطوانية التي هي عبارة عن قطع من الحجر جعلت بشكل اسطواني مثقوب من الوسط لغرض تعليق الختم على الرسغ بوساطة خيط أو سلك، وقد حفر على السطح الخارجي له نقوش أو صور لحيوانات ورسوم آدمية، وكانت محفورة بشكل معكوس، حتى إذا ما دحرج الختم على الطين الطري ظهرت تلك النقوش بارزة على الطين وبشكلها المطلوب[3]. وقد عثر على الأختام الأسطوانية لأول مرة في الوركاء في معبد (أي - انا) وصارت تستخدم لما يشبه التوقيع اليوم، إذ كانت فوهات الجرار المستخدمة للتجارة تغطى بقطعة طين، ثم تختم بتلك النقوش، والكتابات للدلالة على حجمها أو كميتها أو سعرها أو منشئها، وغيرها من المدلولات التجارية. والأهم من ذلك استخدامها كوسيلة لسلامة وحماية ملكيتها كونها محدودة العائدية أولاً، أو ربما هناك اعتقاداً بأن الختم هو الحارس السحري لمحتويات الجرار. وإذا كان المستشرقون والباحثون الأوربيون يعيبون أصالة عراقية السومريين بحجة أن الأختام الأسطوانية ابتكار ليس له أوليات، ولا يوجد فكرة أولية عنها في العراق، وأن هذه الأختام جاءت مع السومريين الآتين حسب اعتقادهم من مناطق أخرى، حيث الأختام التي وجدت في شمال العراق نحو 5000ق.م كانت من النوع المنبسط التي استحدثت فكرتها من الطبعات التي تتركها أقدام الإنسان والحيوان على الأرض. وللرد على هذا الادعاء تقول: إن (الأختام الأسطوانية وجدت مكانها في عراق الرافدين بمجرد

١- ليو أو بنهايم - بلاد ما بين النهرين - ترجمة سعيد فيضي منشورات وزارة الثقافة والإعلام (بغداد 1981 ص 62).

٢- المصدر السابق ص 62.

٣- رشيد، فوزي - الاستشراق وأثره- مصدر سابق ص 14.

أن أوجد السومريون حاجتهم لذلك الاختراع فما شكل عجلة العربة التي اخترعت قبل الأختام الأسطوانية، تترك آثاراً لنتوءات أو فراغات على الطين مطبوعة بشكل متقن ومتصل إذا سارت على أرض طينية ما هي إلا فكرة محفزة). بل وقبل ذلك بكثير ربما أوحت شجرة النخلة الرمز الثاني لحياة سكان أهل الجنوب إلى اختراع الأختام الأسطوانية[1]، حيث إذا ما دحرج جذع نخل على أرض طينية فإن السطح الخارجي لهذا الجذع سوف يترك طبعات على الطين تشبه تماماً طبعات الأختام الأسطوانية. فإذا غاب عن دهن المستشرقين استيعاب أو تذكر تلك الفكرة المادية الأصيلة، فإنها قد وجدت عنوانها في ذهن السومريين بقدر أصالة ذلك الشعب في انحداره. وعطائه العراقي الأصيل، وهكذا صارت هناك طبقة من العاملين في ورش متخصصة تقوم بنحت الأختام الأسطوانية ونقوشها في أماكن ضمن المعبد أو في مناطق خصصت لأداء تلك الوظيفة الحضارية.

أثر الابتكارات في تحريك القرى الزراعية نحو مدن الطلائع:

أشرنا إلى أن ظهور الابتكارات أدى إلى تشكيل المراكز الحضرية (المدن) عن طريق استعمالات الأرض التي خلفتها تلك الابتكارات والتي شكل وجودها في المستوطنات ما يعرف باستعمالات الأرض الحضرية وعن طريق تقسيمات العمل التي أوجدتها تلك الابتكارات.

ولذا سنذكر كيف أثرت المبتكرات آنفة الذكر التي ابتكرها العقل السومري وتكامل وجودها وتأثيرها في نهاية الدور شبه الكتابي، وساهمت في تحول قرى ومستوطنات بلاد سومر إلى مدن طلائع في الفترة ما بين (3000-2800ق.م)، والتي أشاعت ما يعرف اليوم باقتصاديات المراكز الحضرية بسبب ما يلي:

أولاً: دفع الفائض الزراعي إلى المتاجرة الداخلية والخارجية الذي انتهى بظهور السفينة الشراعية التي كان لها دوراً فعالاً في تحول القرى الزراعية إلى مدن عن طريق:

أ- إيجاد قطاع اقتصادي آخر غير الزراعة، إذ مكنت عملية المتاجرة بالفائض الزراعي والحيواني داخل وخارج بلاد سومر من إيجاد أعداد كبيرة من المجتمع العراقي القديم في المستوطنات السومرية للانهماك بشؤون صناعة وتحضير وشحن تلك السلع المتاجر بها. كذلك نشأت طبقة تقوم بصناعة وتهيئة وسائط النقل المائي وأخرى لتسيير السفن والقوافل التجارية وبيع وتصريف حمولتها، وغيرها من المهن المرافقة، مما يدل على نشوء نشاط آخر غير الزراعة (التي كانت الأساس الاقتصادي لتلك المستوطنات)

١- رشيد، د. فوزي - مصدر سابق ص 15.

حيث صار النشاط التجاري والخدمات المرافقة له نشاطاً لا يقل في أهميته عن الزراعة لبناء الاقتصاد السومري بحكم تعدد الاختصاصات وتقسيمات العمل التي أوجدها ذلك النشاط، وهذا يعني أن المراكز الاستيطانية في سومر قد تحولت إلى مدن ولم تعد قرى. إذ إن أحدى العوامل المميزة بين القرية والمدينة هو قطاع الخدمات وتقسيمات العمل المرافقة، حيث لم يعد النشاط الزراعي هو الأساس وبالتأكيد هذا هو حال (أوروك أور أريدو) وغيرها من القرى السومرية التي أصبحت مدناً.

ب- إن استخدام السفينة الشراعية للمتاجرة وربط المراكز الاستيطانية قد أوجد نمطاً من استعمالات الأرض الحضرية الذي لم تألفه القرية، وذلك هو (الميناء kar) إذ اعتبر هذا العنصر الوظيفي أحد عوامل التمييز بين القرية والمدينة[1] والذي صار يضم ورشاً لصناعة وتصليح السفن، كما ضمّ مخازناً لتصنيع المواد التي تجلبها التجارة الخارجية[2] إذ ظهرت مخازن ومعامل تجهيز المصنعات النباتية والحيوانية التي كانت ترسلها مستوطنات بلاد سومر، وصارت خانات المسافرين والتجار تأخذ مكانها عند الميناء، وكان الميناء محاطاً بسكن التجار من غير أهل البلاد. وأصدرت فيما بعد قوانين تسمح بإقامة الأجانب من المدن (شريعة أور)، حيث وجد جزءاً خاصاً ضمن المدينة لإقامة الأجانب مثل شارع الأهالي في استونه، وفي مدينة سبار، وقد وجد في مدينة نفر شيئاً مماثلاً لذلك[3]. وهذا يعني أن الميناء قد أصبح متعدد الاستعمالات، وهو أوسع من مجرد رصيف لاستقبال السفن، وربما وجد في بعض المدن أكثر من ميناء. فهذه مدينة أور كان فيها ميناء شمالي، وآخر غربي أخذا موقعيهما عند حافات المدنية قرب مجرى مياه الأنهار حيث كان نهر الفرات يمر شمال غرب أور ويتجه جنوباً ليصب في البحر الذي كانت تقع عليه مدينة أور أصلاً، ومثل ذلك مدينة أريدو التي كان يخترقها نهر الفرات. بينما كانت أوروك تقع على نهر الفرات، مما سهل إقامة مثل تلك الموانئ التي صارت تشغل جزءاً كبيراً من استعمالات الأرض في تلك المستوطنات. انظر شكل رقم (36).

١- كما ميز ذلك روبرت أدمز.

٢- رشيد، د. فوزي - الاستشراق وأثره- مصدر سابق ص 11.

٣- البدراوي، د. عدنان - موسوعة حضارة العراق ج 3 ص 289.

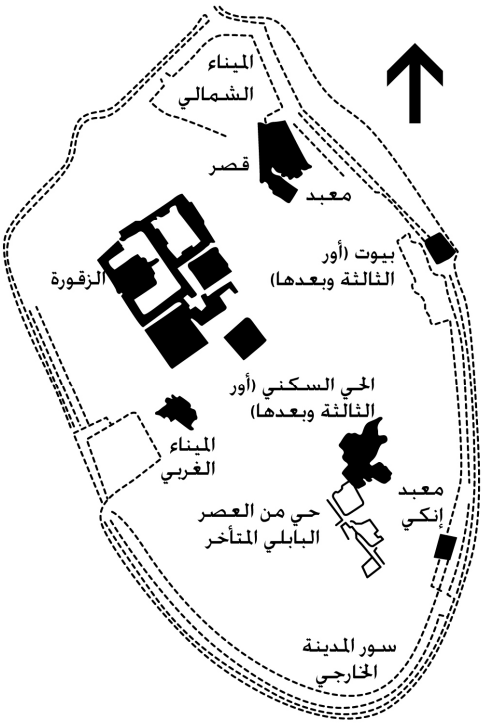

شكل 36: مينائي مدينة أور (ستن لويد 1980)

ج- عـــزز دور الســـفينة التجارية في تنشيط مركز السكن في المستوطنات السومرية بحكم توفر الوظـــائف التـــي خلفتهـــا حركـــة المتـــاجرة، والصـــناعات التجاريـــة والحرفيـة مـن جهـة، وتـوفر المـواد الأولية من جهة أخرى، حيث كانت تنقل مواد البناء من أخشاب ومعادن وأحجـــار مـــن الخـــارج والـــداخل، وصـــارت تخصـــص معظمهـــا للوظيفـة السكنية التـي وجـب تحديد مناطق لها ضمن نسيج المستوطنة التـي صـار توزيعهـا بـالقرب مـن العمل وأماكن العبادة (المعابد) التي احتلت مركز المدينـة، وأعطت لها معـــالم الشـــموخ والصـــدارة كمـــا أعطتهـا موقعاً وبنـاءً لأنهـا مركـز القـرار والسلطة التـي تـدير شـؤون الحيـــاة الاقتصـــادية والاجتماعيـــة والدينية والعسكرية، وصارت المعابد وهياكلها العمرانية والمرافق الخدمية التابعة لها تمثل المنطقة المقدسة التي حظيت بأكبر وأقدس استعمالات الأرض وربما عزلت بأسوار عن باقي مناطق المدينة كما في أريدو وأور.

د- إن اتساع نطاق التجارة أدى إلى ظهور الأسواق التجارية داخل نسيج المدن، إضافة إلى ورش ومعامل التصليح عند الميناء، وفي مناطق مختلفة من المدينة. فظهرت الحاجة إلى العربة لتقوم بنقل البضائع والسلع التي حملتها السفن التجارية من الشواطئ إلى داخل المدن وأسواقها[1]، ومناطق استخدامها التي أوجدتها حياة مستوطنيها، إضافة إلى نقل الأخشاب إلى أجزاء المدينة المختلفة[2]، وبالتالي أوجدت العربة مجالات متعددة ضمن نسيج واستعمالات الأرض الحضرية التي صارت تمثل شبكة النقل بين تلك الأجزاء، إضافة إلى الممرات والأزقة ضمن المنطقة الواحدة نفسها.

هـ- نتيجة لاتساع نطاق التجارة بين العراق القديم والخليج العربي والمناطق الأخرى فقد برزت الحاجة إلى الكتابة والتدوين بغية تسهيل العلاقات التجارية بينهما.

١- رشيد، د. فوزي - الاستشراق وأثره.... مصدر سابق ص 11.
٢- الهاشمي، رضا جواد - موسوعة حضارة العراق... مصدر سابق ج 2 ص 225.

وظهرت البوادر الأولى بعد مدة قصيرة نسبياً من توطيد تلك العلاقات(نحو 3500ق.م التي عثر عليها في معابد الوركاء ط 4) والتي بولادتها ولدت الحياة المدنية وكان التاريخ.

ثانياً: لقد أوجد تطور واختراع الوسائل والآلات المعدنية المستخدمة للزراعة والصناعات البنائية، والإنشائية المحلية، والأثاث، والآلات، والأدوات المنزلية والأسلحة البرونزية والأواني الفخارية التي صنعت بالدولاب، والأواني المعدنية والمجوهرات الذهبية والفضية والأحجار الكريمة والعربات ذات عجلات ومحاريب والمعاول والسكاكين والسيوف والخناجر المعدنية والأختام الاسطوانية وغيرها من الصناعات نمطاً من العمل الذي توفرت فيه المهارات والإبداعات الفكرية والمادية والتي أصبحت نشاطاً أساسياً في تلك المستوطنات والتي حظيت بتخصيص أماكن واستعمالات أرض ضمن تركيب المدينة. كما وجدت مناطق العبادة أماكنها في مركز المستوطنة والمواقع السكنية موضعاً آخر لها. بحيث صار للمستوطنة شكلاً خلقه تأثير تلك التطورات، وإنّ التطورات التي ورثتها عن العصر الحجري المعدني غيرت تركيبها، وحياتها، فلم تعد تعطي صورة المجتمعات الزراعية إذا ما قيست بالمعايير والمفاهيم الحضرية المعاصرة، بل إنها مجتمعات مدن تحتضن طبقات اجتماعية ووظائف واختصاصات صار صناعها يوصفون بأنهم لا ينتجون الطعام بل يستهلكونه مقابل قيامهم بعرض صناعتهم وخدماتهم التي ينتجونها داخل المدينة لبيعها للقرويين الذين يمارسون الزراعة خارج حدود المدن، ويقومون بمبادلة سكان المستوطنات الحضرية بفائض إنتاجهم مقابل خدماتهم.

وبذلك صار اقتصاد تلك المدن يمثل انعكاساً لهذه الفعاليات الوظيفية، وإن استعمالات الأرض فيها تمثل الحاجة الفعلية للمستوطنين، ويعمل كل جزء فيها بوصفه حالة من كل متكامل ومكون من مجموعة من الأجزاء المترابطة لخدمة سكان المدينة إضافة إلى ما يقدمه من خدمة لسكان القرى المحيطة.

خامساً: ظهور السلطة السياسية (العامل السياسي):

على الرغم من أن استخدام عبارة السلطة السياسية لا تعني لمرحلة طلائع المدن (3500-2800ق.م) المفهوم الواسع الذي عرفت به في عصر فجر السلالات والأدوار التالية، عندما ظهرت حركة مراكز النفوذ والصراع الطبقي. إلا أن وجود مراكز استيطانية مهيمنة على أطراف واسعة يحتم وجود هيئة اجتماعية متفرعة عن مؤسسة المعبد تتولى مهمات السلطة السياسية لتقوم بتنسيق العلاقة بين المركز والأطراف، فكانت سلطة "مجلس الكبار" التي يصفها جاكبسون[1]

١- مهدي، علي محمد مصدر سابق ص 135 عن:
Jacobson. The early political development in mesoptamia in titm pp 132-156.

بالآتي "كان قوام السلطة السياسية في تلك المجتمعات مؤلف من مجلس يضم الكبار (مجلس الشيوخ) يدير شؤون السلطة السياسية التنفيذية، ولكن السيادة العليا كانت بيد مجلس عام يضم أعضاء لجميع البالغين من الذكور ومن اختصاصه حسم المنازعات والخلافات، ومواجهة الأخطار الخارجية، وإصدار القرارات حول الحروب والسلام، وللمجلس رئيس ينصب في أوقات الحرب، وتكون له سلطة مطلقة. ولذلك فإن وجود مثل تلك السلطة في المستوطنات السومرية دفع إلى:

1- شعور الأطراف التابعة لها وكذلك المستوطن الأم بأمان في ظل وجود سلطة قادرة على حمايتها من أطماع الآخرين، وهذا ما دفع تلك الأطراف إلى الأخذ بكل الأسباب لزيادة الإنتاج في ظل جو مزدحم بالنشاط الجماعي المتعاون.

2- الشعور بوجود مرجع أعلى قادر على حل الخلافات التي قد تحدث بسبب سوء استغلال عناصر الإنتاج كالأرض ووسائل الإرواء ليس بين أطراف المستوطن الواحد وإنما بين المستوطنات المجاورة كما حصل بين أوما ولكش، حيث استمرت تلك التشكيلات حتى تلك الفترة.

3- خلق حالة من التبعية بين الأطراف المحيطة، والمركز متمثلة بقيام الأطراف بتقديم العناصر القادرة على أداء الخدمات داخل المركز من محاربين وصناع وحرفيين مساهمين في تلبية متطلبات الحياة. داخل المركز لينعكس فضلها على الأطراف التالية.

وقد انعكست مثل تلك المفاهيم إلى إشاعة ما عرفه جاكبسون بالديمقراطية البدائية primitive democracy التي لم تألفها إلا الحياة المدنية التي تمارس في المراكز الحضرية، وهي تضم السلطة المركزية القادرة على اتخاذ القرار، ومن حولها عناصر السلطة التنفيذية، وأدواتها التي تمارس واجباتها على المركز والأطراف باعتبار أن الأطراف رافد معين للإمدادات المادية والبشرية.

سادساً: بناء الاستحكامات الدفاعية والتحصينات الأمنية (العامل الأمني):

على الرغم من أن حضارة القرية حققت من الألفة والاستقرار في مجتمعها ما لم تعرفه المدينة إلا نادراً. إلا أن مركز الاستقرار هذا كان تحت رحمة العوامل الطبيعية، فقد كان بالإمكان تدمير قرية بكاملها أمام عاصفة شديدة أو سيل جارف أو عدو غادر طامع دون أن تحصل على عون من أقرب المستوطنات المجاورة. وهذا ما حصل في كثير من القرى العراقية ولا سيما الجنوبية التي كانت تقع قرب مياه الأنهار أو أطراف الصحراء، إذ كانت مهددة بالفيضان من مياه الأنهار والأهوار أو الخليج ومن عواصف الصحراء الرملية. لذلك مع تطور وتقدم الحياة الاجتماعية والسياسية وتوسع مدارك الإنسان العقلية الذي أصبح بمرور الزمن يستوطن في أماكن متباينة في إنتاجها الاقتصادي برزت الحاجة إلى حماية المستوطنين وبيوتهم ومزارعهم، فكانت الخنادق والأسوار التي ظهرت طلائعها الحقيقية في تل الصوان

وجوخة مامي، وغيرها من القرى المنحدرة جنوباً عند السهل، حتى إذا ما حلت العصور التاريخية وبالتحديد عام 2800 ظهر إلى جانب الإله في كل مستوطنة حاكم سمى نفسه ممثلاً للآلهة أو نائبه. وصار يجسد الإله من الطقوس الدينية واغتصب لنفسه الحصة الأساسية من قوة الإله وسيادته للناس، وفي حكمهم حكماً مطلقاً بموجب الحق الإلهي المقدس. ثم تطورت صلاحيات هذا الكاهن أو الحاكم ليتبع ملكاً ثم زعيماً مدنياً وقائداً عسكرياً يمتلك السلطتين الدينية والسياسية. أراد مثل هؤلاء الملوك إحكام سيطرتهم ليس على الناس فحسب بل على سائر أركان المستوطنة، وممتلكاتها حين جعلوا جميع عناصر بيئتها تحت حمايتهم، فعمدوا إلى بناء الخنادق والأسوار وأشكال أخرى من التحصينات الأمنية لتحقيق هذا الغرض. وأصبح الخندق والسور أهم أقسام المستوطنة وكانت عملية أدامتها وتقويتها من الأعمال التي يشارك فيها الجميع بلا استثناء، وإنّ إقامة السور هو من أهم الأعمال التي يسعى إلى تحقيقها الحكام الذين أدركوا أهمية مثل هذه الاستحكامات وأثرها في الحياة العامة للمستوطنين[1]. وإذا كنا سنتطرق لاحقاً إلى وظيفة السور كأحد عناصر البناء الحضري في المدينة، فإننا نكتفي هنا بذكر وظيفتين رئيستين للسور تمثلان العامل الأمني الذي حمى تلك المستوطنات وجعل منها آمنة بفضل[2]:

1- أصبح السور تدبيراً حربياً لصدّ هجمات الأعداء والطامعين من المستوطنات السومرية وخيراتها وسكانها وعناصر إنتاجها.

2- صار السور حداً فاصلاً بين المركز الاستيطاني الذي يضمُّ عدداً كبيراً من الناس غير المزارعين الذين يعيشون على مبادلة المنتوجات المصنعة، والخدمات الضرورية التي اكتفى المركز بتقديمها مع قرارات سلطته الدينية والدنيوية، وبين الريف المجاور. أي أن ذلك المركز أصبح مدينة يفصلها السور عن ريفها المجاور، ذلك السور الذي غدا أحد العوامل المميزة بين القرية والمدينة. إضافة إلى الحماية التي يوفرها ذلك السور للمدينة. وإذا كانت الوركاء هي أولى مدن العراق في السهل الجنوبي، فإنها أولى المدن التي شهدت بناء سورها العظيم في عصر جلجامش الملك الخامس لسلالة أوروك الأولى نحو 2750ق.م ثم سور مدينة أور في عهد حاكمها أورنمو مؤسس أور الثالثة وغيرها من المدن السومرية التي حظيت بمثل هذا العامل الأمني الذي دفع إلى نشأتها.

وعلى الرغم من أن هذا الحدث سمح بحشد عدد كبير من الأيدي العاملة بغير النشاط الزراعي تحت سلطة مركزية، قد حرم ابن القرية سابقاً من قدر كبير من حقه في حكم نفسه، وما كان يشعر به من الألفة المطلقة بين بيئته السابقة، إلا أنه بخضوعه لعناصر القوة الجديدة في المدينة المتمثلة في التحصينات الأمنية ورموزها ربط نفسه وحياته بتلك العناصر، وصار ينعم بنصيب كافٍ من الرفاه

١- الدباغ، د. تقي "موسوعة المدينة والحياة المدنية"- مصدر سابق ص 49.

٢- ممفورد، لويس - المدينة على مر العصور - ترجمة إبراهيم نصحي - مطبعة مصر 1964 القاهرة ص 118.

والطمأنينة لم يكن يتمتع بها من قبل. لذلك فإن فاعلية العامل الأمني المتمثل ببناء الأسوار والخنادق والأشكال الأخرى من التحصينات هي التي حولت المستوطنات السابقة إلى مدن ولم تجعل تحويلها مجرد تغيير في الحجم والشكل وإن كان ينطوي على هذين العاملين إلا أنه أسهم وبشكل فعال وإرادي في تغيير الاتجاه، والأهداف نحو نوع جديد من التنظيم مثلته نظم المدينة السومرية الاقتصادية، والاجتماعية، والعمرانية، التي ينطبق عليها قول الفيلسوف الصيني مينشوس mencius[1].

"عندما يقهر الناس على الخضوع بالقوة لا تخضع عقولهم، وإنما يكون خضوعهم بسبب عجز قواهم. أما عندما تقهرهم القوة الشخصية على الخضوع فإن سرورهم يتغلغل إلى قرارة أنفسهم فيتمثلون للخضوع فعلاً". وفي المدن السومرية الطلائعية كانت قوة الشخصية هو ما وفرته المدينة وآلهتها من قداسة وهيبة، وكانت المصدر الأساسي لكل الأعمال العظيمة التي استطاعت المدينة أن تحققها من بينها الأسوار العظيمة والتحصينات الجبارة. ولو أن المدينة الفوضوية القديمة رمت بمثل هذه القوى المقدسة لما كانت إلا أكواماً من الآجر والأحجار بلا شكل ولا غرض ولا معنىً.

١- ممفورد - مصدر سابق ص 124.

التمييز بين مفهوم القرية والمدينة

مما سبق عرضه اتضح أن عملية نشوء القرية كأول مستقر بشري دائم، وما شهدته من تطورات قد سارت بخطوات تدريجية استغرقت ما يقرب من 4000 سنة. بدأت طلائعها بقرية جربو شمال العراق من بداية العصر الحجري الحديث (8000ق.م) وانتهت بظهور طلائع المدن في السهل الرسوبي الجنوبي نحو(3500ق.م) التي صار لها نشاطها الذي يميزها عن القرية غير إن:

أ- الصعوبة التي جابهها علماء الآثار والمخططون الحضريون في بداية الأمر لتعيين النقطة التي ارتكزت عليها النشأة الأولى لحضارة المدينة، والتي بدأت طلائعها في بلاد سومر.

ب- نمط وحياة مجتمعات المدينة نفسها التي أبدت حالة جديدة في جنوب العراق لم يكن يألفها الوضع الاستيطاني عبر المسيرة الطويلة لحياة مستقراته.

هذان الأمران اللذان شكلا منفذاً آخر سلكه بعض المستشرفين للادعاء بعدم الأصالة العراقية للسومريين كونهم هم الذين أتوا بحضارة المدينة وحياتها المدنية تلك التي لم يكن يألفها الوضع الاستيطاني في العراق. واتخذوا من تحول بعض القرى الزراعية إلى مدن في منتصف الألف الرابع دليلاً على مجيء شعب جديد حقق مثل ذلك الوضع.

ولإثبات أن فكرة المدينة جاءت جاهزة من الخارج من جهة، وليبعدوا عن سكان هذا البلد المبادرة والفضل الكبير على الحضارة البشرية من جهة أخرى، وإذا كنا لا نريد الإطالة للرد على مثل هذا الادعاء للتأكد من أصالة السومريين الذي صار أمراً مفهوماً ومؤكداً. غير أن التوضيح حول العاملين أعلاه يكمن في:

أولاً: إن التمييز بين القرية والمدينة ظل أمراً غير معروف في أوروبا حتى العصور الأوروبية الوسطى، حيث كان ينظر إلى المدينة على أنها مؤسسة اجتماعية واضحة المعالم رغم أنها على صلة وثيقة بالأرض وفعالياتها. لذلك يذهب ترقليان ليصف المدينة الإنكليزية في القرن الرابع عشر على أنها مجتمعاً ريفياً بجانب كونها مركزاً للتجارة والصناعة. وتحيط بتلك المدن غير المسورة

الحقول التي كان يزرع فيها كل مواطن بريطاني الأرض ويرعى ماشيته في حقل المدينة المشترك"[1].

ثانياً: إن عوامل نشأة وتطور المدن نفسها، وما حملته من عناصر الأصالة المستمدة من خصائص وتركيب القرى العراقية إضافة إلى ما أنتجه العقل السومري فيها تمثل الرد الأكيد لإثبات أصالة وعطاء هذا الشعب، وتقف المدينة وحياتها المدنية في مقدمة هذا العطاء. لأن النتاجات الحضارية هي في حقيقتها انعكاسات لبيئة المنطقة التي يعيشها الإنسان، وبالتالي فإن ما ذكرنا من عوامل لنشأة المدن السومرية، والتي جميعها تؤكد محلية انبعاثها. نرى كيف أن عملية تحول القرى إلى مدن قد سار بخطوات متأنية وفق مناهج وأسس أملتها الظروف البيئية، والاجتماعية، والسياسية وأكسبت تركيب المدن العراقية الأولى خصائص ومميزات أثرت فيها وسارت على نهجها المخططات التالية للمدن العراقية من جنوبه حتى شماله رغم التبدلات السياسية وتعاقب السلالات الحاكمة، عدا بعض الاختلافات التي أملتها الظروف المحلية أو فرضتها الرغبات الشخصية لبعض الملوك والحكام.

وإنّ لويس ممفورد يضع عنصرين للتفريق بين القرية والمدينة هما[2]:

1- وجود مركز اجتماعي منظم يستقطب جميع أركان بنية المجتمع.

2- وجود مجموعة من الأبنية والمرافق المتميزة التي توضح قدرة الإنسان، وزيادة سيطرته على البيئة عن طريق إقامة الطرق السالكة والجسور ومشاريع الري، والبزل وتنظيم إيصال مياه الشرب، وممارسته للحرف الصناعية، وبما يقلل اعتماد الإنسان على الأرض. فإن مثل هذين العنصرين برزا فعلاً في منتصف الألف الرابع وظهرا جلياً في بداية الألف الثالث في القرى السومرية التي تحولت إلى مدن مثل الوركاء وأور وأريدو حيث:

أ- ظهر المعبد كمركز اجتماعي واقتصادي وديني.

ب- إن أبنية المعابد وباقي أبنية المنطقة المقدسة، ودور السكن المتميزة وشبكات الطرق، والمواصلات ومشاريع الري والبزل المنتشرة في بلاد سومر، وإقامة الورش لصناعة السفن والعربات وتصليحها وورش النحت، والحدادة والتجارة والعمارة، وغيرها من الأساليب قللت فعلاً من اعتماد الإنسان على الزراعة كنشاط أساسي ووحيد في حياة المستوطنات القروية، تلك التي صارت تضم الصناع والمهرة والعاملين في مختلف أنشطة الخدمة، بينما صار ناتج النشاط الزراعي والرعوي يأتيها من خارج حدودها.

أما إذا اعتمدنا رأي كورون جابلد للتميز بين القرية والمدينة فإننا نجده يصنع تسع مقاييس للتميز بينها هي[3]:

١- البدراوي، د. عدنان - موسوعة حضارة العراق ج 3 مصدر سابق ص 286.

٢- ممفورد، لويس - المدينة على مر العصور - ترجمة إبراهيم السطحي.

٣- عباس، د. عبد الرزاق حسين "ترجمة إبراهيم نصحي" مطبعة القاهرة/ مصر 1964 ج 1.

1- تمتاز المدينة بتقسيم العمل حسب اختصاصات معينة، فهناك أصحاب الحرف والموظفين وعمال النقل والمواصلات ورجال الدين.

2- تمتاز المدن القديمة بالنسبة للقرى بكبر حجم سكانها، وارتفاع كثافتها السكنية. وقد قدر عدد سكان المدن السومرية باحتوائها لـ 7-20 ألف نسمة.

3- تمتاز المدن بالتقدم والاهتمام الفني، ووجود طبقة معينة من الفنانين بين سكانها.

4- اختراع الكتابة، والاهتمام بالأختام التي استعملت لتصديق العقود والمعاملات التجارية.

5- الاختراعات العلمية الدقيقة، والتقدم العلمي الذي يتمثل بالحساب والهندسة والفلك من قبل مجموعة من المجتمع، مما ساعد على تخطيط المشاريع العمرانية الكبرى مثل الري وبناء المعابد.

6- تمتاز المدن بجمع الضرائب من سكان الريف.

7- تمتاز المدن بالتحف والتماثيل والمبادئ العامة وهذه تمثل زيادة في إنتاج المجتمع البشري.

8- تمتاز المدن عن القرى بالتجارة الخارجية بسبب توفر الفائض من الإنتاج.

9- ظهور مجتمع يمتاز بالتركيب الطبقي نتيجة للتوزيع غير المتساوي في الملكية.

ونجد أن هذه الآراء وغيرها التي تميز بين القرية والمدينة وتضع الحدود الفاصلة بينهما تؤثر تماماً في الحد الذي كان يفصل بين قرى الجنوب العراقي ونقطة تحولها إلى مدن. وهذا ما يمكن تلمسه بوضوح في مخططات مدينة أريدو وأور والوركاء وغيرها من قرى بلاد سومر التي تحولت إلى مدن في مطلع الألف الثالث ق.م، فكانت لها خصائصها التي ميزتها عن كونها قرى زراعية[1].

ونستنتج من ذلك أن الخصائص الموقعية وما نتج عنها من توزيع لشبكة المستقرات السومرية، إضافة إلى مصادر الثراء الاقتصادي المعبر عنه بسعة الأرض الزراعية ووسائل إنتاجها من مشاريع ري وعناصر عمل اقتصادية نتج عنها فائض زراعي دفع إلى المتاجرة باستخدام السفينة الشراعية، وما رافقها من ابتكارات كانت جميعها عوامل ساهمت متضافرة مع السلطة

١- أفضل تلك الآراء للتمييز بين القرية والمدينة هي تلك التي شخصها روبرت آدمز، والتي أوضحت خصائص المدن السومرية الأولى، إذ اعتمد جملة من الفروقات شكلت العناصر التركيبية المشتركة لمعظمها كما سترى في الفصل الرابع. للمزيد من المعلومات حول التمييز بين مفهوم القرية والمدينة يراجع كتاب جمال حمدان. جغرافية المدن من دون تاريخ ص 54-69.

المركزية للمعبد أثناء الفترة 3500-2800ق.م في خلق جذور التحول من القرى الزراعية الناضجة إلى طلائع المدن.